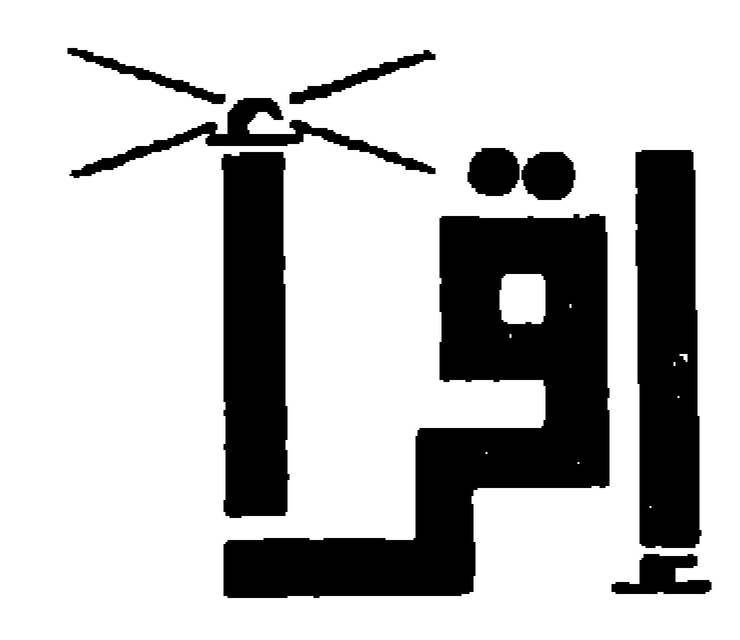
اقرأ

فى مواجهة إسرائيل



الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله

دار المعارف بمصر



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



اسماعيل صبري عبدالله

فى مواجهة إسرائيل

اقرأ ٣١٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٩ – يوليو سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

إلى أطفال دير ياسين

إلى أين المصير . . ؟

عرفت الثورة العربية خلال السنوات العشر الأخيرة حركة مد وجزر متعاقبين . وقد عرفت القوى الثورية قبلنا المد والجزر . ولسنا نقول هذا تبريراً لأخطاء ، أو تعزية حيث لا عزاء . فليس حتماً مقضياً على كل ثورة أن تعرف على التوالى التقدم والتراجع . وإنما نحاول أن نضع الساعة الراهنة موضعها الصحيح من سلسلة الزمن المعاصر حتى لا يلهينا حدث على فداحته عن إدراك حركة الأحداث فى جوهرها . إن الثورة العربية بأبعادها الثلاثة : التحررى ، والتقدمى ، والوحدوى قد أحرزت نجاحات مؤكدة على رأسها استقلال الجزائر وثورة اليمن الشمالى وتحرر اليمن الجنوبى ، وإجراءات التحرر الاقتصادى والتحول الاجتماعى فى عدد من الأقطار العربية ، واتضاح المحتوى التحررى والتقدمى الضرورى لفكرة الوحدة العربية . وقد تعثرت الثورة فى مواقع كثيرة لأسباب متعددة فى مقدمتها تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينها . ولكن الجزر الأعظم الذى واجهته حركة التحرر العربى هو يقيناً هزيمة سنة ١٩٦٧ ، نعم لقد كانت تلك الهزيمة بآثارها العميقة ، وأبعادها الرهيبة ، أعتى ما أصاب الأمة العربية فى العصر الحديث : اقتطاعاً من الجسد ، وامتهاناً للعزة ، وامتحاناً عسيراً للعقل والإرادة .

وإذا كان رد الفعل المباشر والتلقائى للجماهير العربية قد جاء رائعاً وملهماً : رفض للهزيمة ، وصمود فى وجه العدوان ، وإصرار على النضال حتى النصر ، واستعداد للتضحية بلا حدود ، فإن ردود الفعل فى دوائر الحكم والسياسة وأوساط المثقفين وطلائع الشباب لم تكن دائماً فى مستوى الأحداث . لقد انتاب البعض بلبلة فكرية هائلة دعتهم إلى إعادة النظر

فى كل شيء ، والشك فى كل شيء . واشرأبت روح الهزيمة والاستسلام تتفشى بالقوى الثورية وما أصابها وتشيع باسم التعقل والاعتدال والواقعية الدعوى إلى التسلم للاستعمار الجديد والتماس الأمن فى ظل عصا الإمبريالية الأمريكية الغليظة وأداء ما تقتضيه تلك الحماية من إتاوة فى شكل التخلى عن آمالنا العراض فى الحرية والاشتراكية والوحدة. وفى الطرف الآخر وقف ثوريون شرفاء تقطر وطنيتهم مرارة وأسى ، يكاد القنوط أن يملك عليهم نفوسهم ويحملهم إلى المطالبة بالمغامرة بأى شيء كمن يشتهى غسل عار الهزيمة ، وسقى فولاذ الإرادة ، والتطهر من أخطاء وصلت أحياناً إلى حضيض الخطيئة فى نار حرب تحقق ذلك كله أو لا تبقى على شيء . . . وليس فى ردود الأفعال غنى لشعوبنا . إذ لا غنى لأى شعب يواجه ما نواجه من امتحان إلا فى التفكير الهادئ والحساب الدقيق . وهذا ما لا يتأتى إلا بمعرفة بالواقع شاملة وكافية . ولكن الفرق بين الثوريين و « الواقعيين » فى هذا المجال يكمن فى أن تلك المعرفة تنتهى بالآخرين إلى الاستسلام للواقع ، فى حين أنها فى نظر الأولين ضرورة بالدقة لتجاوز الواقع بفاعلية ونضال بدل الفرار منه تعلقاً بالخيال ، ومن الناحية الأخرى لا شك أن الحماسة ذخر المقاتل لا تعادله ذخيرة ، والوطنية المشبوبة درع واقية من سهام الاستعمار الجديد ، ولكن التحليل العلمى « على البارد » هو وحده الذى يهدى إلى سبل النصر .

وهذا التحليل العلمى المنشود من أصعب الأمور . ولا ترجع صعوبته فقط إلى ما يجيش بالنفوس من غيظ كظيم وألم مضطرم وسخط متقد ، بل ترجع كذلك إلى أننا نواجه ظاهرة عدوانية بالغة التعقيد تشابكت عندها عوامل متعددة ، وتراكمت حولها عبر السنين أحداث ذات آثار متنوعة ، ومن ثم لا يمكن أن نملك لها حلا فرداً بسيطاً وواضحاً . لقد

٩

عرفت بلادنا الاحتلال الأجنبي وما صاحبه من أشكال للسيطرة تحت أسماء مختلفة من حماية إلى انتداب إلى مستعمرات التاج أو الضم إلى أرض المستعمر . وفى كل هذه الحالات كانت القضية بسيطة وواضحة : طرد المحتل . وكانت الأمور جميعاً تتحدد بالاحتكام إلى هذا الهدف الفرد الذى لا يقبل التبديل ولا التأجيل . أما مواجهة الظاهرة الصهيونية الإمبريالية فى فلسطين والوطن العربى فلا بد بالضرورة أن تمتد أفقياً من حيث التنوع الموضوعى فى الأساليب والوسائل ، ورأسياً من حيث الأمد التاريخى . ذلك أنها نجحت فى خلق دولة أجنبية على جزء من أرض الوطن العربى بطرد أكثر سكانه منه ووضع البقية موضع الأقلية المهضومة الحق فى أرضها . كما نجحت فى أن تضفى من الناحية الشكلية على الاغتصاب طابع « المشروعية » بإقراره من هيئة الأمم المتحدة واعتراف الدول به . ثم أخذت تنفذ خطوة بخطوة مخططاً رهيباً للتوسع والسيطرة . والسؤال : إلى أين المصير ؟ يجب أن يسبقه سؤال آخر : ما هو المصير ؟ ما ظهر منه وما استتر .

١

النظرة الجزئية خطأ وخطر

منذ أن حلت بالوطن العربى نكبة الصهيونية سادت فى بلادنا فى أوقات مختلفة ، وتعاصرت أحياناً ، نظرات إلى الظاهرة الصهيونية الإمبريالية تركز على جانب واحد منها ، وأحياناً تتوهم فهم أحد الجوانب ، وتهمل بقية حقائقها المعقدة . ولابد من الخلاص من تلك النظرات ومن الفكريات التى تعبر عنها . وكلما تخلصنا من واحدة منها رفعنا عن البصر غشاوة حتى يصبح حديداً لا يخطئ الرؤية .

هل اليهود عنصر فاسد ؟

وأكثر تلك النظرات فجاجة هى النظرة العنصرية التى قوامها أن اليهود عنصر شرير يدبر باستمرار لإفساد البشرية والسيطرة عليها مستغلا المال والجنس ، يسيطر فى الخفاء حتى يتمكن فيسيطر فى العلن . وتستند تلك النظرة إلى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » ، وتستمد الكثير من الحجج من مستنقع النازية . وهذه النظرية تتناقض تماماً مع قيم الحضارة العربية التى قامت وازدهرت تحت شعار : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » والتى رفضت بصفة عامة المفاهيم العنصرية . إن العرب لم يروا فى اليهودية « عنصراً » وإنما رأوا فيها ديناً من الأديان السماوية ، لمن يعتنقه ضمانات وفرها الإسلام . وقبل ظهور الإسلام اعتنق فريق كبير من عرب اليمن شريعة موسى ، وكانوا وغيرهم من العرب اليهود ، تكذيباً صارخاً لدعوى العرقية الصهيونية التى تزعم أن

اليهود جميعاً ينحدرون من الأسباط الاثنى عشر . وحين طرد الإمبراطور الرومانى طيطس اليهود من بيت المقدس لجأ عدد كبير منهم إلى مصر وإلى الجزيرة العربية . ثم عاد اليهود إلى القدس بعد ذلك بحوالى ستة قرون حين حررها العرب من حكم بيزنطة . وحين احتل الصليبيون المدينة المقدسة ، أعملوا التذبيح فى المسلمين والمسيحيين وطردوا منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد أهلها من اليهود إليها خلف جيش البطل العربى الكبير . وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا فى العصور الوسطى تحاصر اليهود فى أحياء لا يخرجون منها تسمى « جيتو » وتفرض عليهم صنوفاً من الاضطهاد كان الفكر اليهودى يزدهر فى بلاد العرب . وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية أثر الفلسفة الإسلامية ، على منهج المتكلمين أولا ثم متأثرة بفلاسفة الإسلام الكبار . وأكبر الأسماء فى تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا أدنى شك أسماء موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وطبيب صلاح الدين ، ويوسف بن سعيد الفيومى المشهور عند اليهود باسم سعديا . وكانت المدارس الدينية فى الأقطار العربية وفى مقدمتها مدرسة « سورا » فى العراق منارات الفكر اليهودى . وكان معلموها يؤلفون بالعربية وبالعبرية على حد سواء . وأخيراً حين قرر ملوك إسبانيا والبرتغال طرد اليهود من شبه الجزيرة الأيبرية بعد أن طردوا العرب المدجنين والمستنصرين ، لجأت غالبية اليهود إلى الأقطار العربية فى شمالى إفريقيا حيث كان التسامح الإسلامى ، فى الوقت الذى كانت محاكم التفتيش فيه ترهب كل أوربا .

إن الفكر العنصرى ظهر وتأكد وانتشر فى أوربا ، ليس ضد اليهود وحدهم ، وإنما كسلاح أيديولوجى فى خدمة السيطرة الأوربية . فمواطن روما سيد غير منازع فى كل أنحاء الإمبراطورية . « والسلام الرومانى » معناه خضوع الأمم لسيطرة روما لتعيش فى سلام تفرضه

جيوشها، تماماً كما يتصور القوم فى واشنطون اليوم «السلام الأمريكى» .

و « اللاسامية » ليست إلا أحد مظاهر ذلك الاتجاه العنصرى الأصيل الذى يتمثل فى الموقف من السود ، أو من الصفر ، أو من شعوب العالم الثالث كلها لأن جوهر اللاسامية هو إنكار صفة « الأوربى» على اليهودى الأوربى ، أى رفض بأن ينتمى إلى العنصر الممتاز ورده إلى مرتبته العنصرية بين « العناصر الدنيا » فى سلم التمييز العنصرى البغيض . والتسليم بمعاداة السامية مطبقة على اليهود يسقط كل حجة ضد تطبيقها على العرب . ذلك أننا بمنطق العنصرية ساميون كاليهود تماماً . إن تقاليدنا الحضارية رفضت هذا الفكر . وعاش اليهود بيننا يعانون ما يعانى مجتمعنا ويتمتعون بما يصيب من تقدم . واللغة دائماً شاهد حضارى لا يكذب . لقد تكلم يهود البلاد العربية لغة العرب . فى حين أن الاضطهاد حملهم فى أوربا على أن يستخدموا لغات خاصة بهم . ومن المعروف فى علم اللغة ، أن اللغات الخاصة تنشأ من احتياج الجماعات المضطهدة إلى استخدام لغة لا يعرفها مضطهدوها . وهكذا نشأت « اليدش » و « اللادينو » . وليست أى منهما تعبيراً عن حفاظ على لغة قومية . فالأولى وهى لغة الأشكناز مشتقة من الألمانية (وكلمة أشكناز نفسها تعنى ألمانيا) والثانية وهى لغة السفاراديم مشتقة من الإسبانية (وسفراد تعنى إسبانيا) . واليهود قد فقدوا ارتباطهم بالعبرية منذ قرون طويلة . فى القرن الثانى الميلادى كان يهود مصر عاجزين عن قراءة التوراة ، مما حمل بطليموس ملك مصر على تكليف عدد من الأحبار بترجمتها إلى اليونانية (الترجمة السبعينية) .

والتسليم بهذه النظرة العنصرية يطمس نهائياً دور الاستعمار فى إنشاء إسرائيل ودعمها . ومن المعروف أنه لولا بريطانيا لما وجد الوطن القومى ولا نشأت إسرائيل ، ولولا سلاح فرنسا وأموال وسلاح ألمانيا الغربية ،

وأموال وسلاح ونفوذ الولايات المتحدة لما أصبحت إسرائيل ما هى عليه اليوم ، كما أنه يؤدى إلى خطأ فادح فى فهم سياسة الاستعمار يتمثل فى الظن بأن موقف أمريكا الموالى لإسرائيل مرجعه نفوذ الصهيونية هناك . أى بعبارة أخرى أن اسرائيل توجه سياسة أمريكا لا العكس . ومثل هذا الظن يهبط إلى مستوى السذاجة ويقود حتما إلى منطق استرضاء الاستعمار لكى تكون له فى بلادنا مصالح يقاوم أصحابها نفوذ الصهيونية . وهل يحلم الاستعمار الجديد بأكثر من أن تكون تلك هى الفكرة السائدة فى بلادنا ، تدعو لفتح الأبواب على أوسع ما يكون أمام زحفه الاقتصادى؟ ولكن أخطر ما فى النظرة العنصرية هى أنها تسلم كامل بوجهة نظر العدو الصهيونى نفسه ؛ فالصهيونية تقوم على فكرة أن اليهود عنصر متميز بين سائر البشر . حقاً إنها تعتبره العنصر الممتاز . أما اعتباره على العكس العنصر المنحط فإنه لا يغير من التسليم بأنه عنصر متميز على كل حال .

هل إسرائيل مجرد أداة للاستعمار ؟

وثمة نظرة أخرى ، على جانب كبير من الصواب ، ولكنها تخطئ حين تصاغ فى إطلاق يهمل حقائق أخرى ، وأعنى بها نظرية إسرائيل أداة الاستعمار . ولها ولا شك فضل إلقاء الأضواء على دور الاستعمار فى نشأة إسرائيل ودعمها ، وعلى دور إسرائيل فى خدمة الاستعمار . ولكنها تهمل دور الصهيونية كحركة استعمارية لها مكانها المتميز داخل إطار الاستعمار العالمى . فإسرائيل ليست مجرد قاعدة عسكرية تابعة لأمريكا مثل جوانتانامو فى كوبا . ومهما يكن من مدى اعتمادها على الغرب بصفة عامة وعلى أمريكا بصفة خاصة ، فإنها تستند إلى حركة صهيونية منظمة تنتشر فى بلاد كثيرة ، يقودها احتكاريون كبار ، وتملك من وسائل التأثير ما بدا واضحاً مثلا فى الانفصام الكامل بين

سياسة ديجول وموقف الصحافة الفرنسية ، أو حتى الإذاعة والتليفزيون بالرغم من تبعيتهما للدولة . وهى حركة ذات نفوذ واسع للغاية بين اليهود فى مختلف بلاد العالم ، أياً كانت الأسس التى يستند إليها ذلك النفوذ . كما أنها تتجاهل حقيقة وجود مجتمع إسرائيلى يتجاوز المليونين عداً له صراعاته ، وبه طبقة مسيطرة ، وأيديولوجية توسعية ، وقدرات عسكرية ، تجعل إسرائيل أقرب إلى الشريك الصغير للدول الإمبريالية ، منها إلى مجرد الأداة معدومة الأطماع الذاتية . فإلى جانب دور إسرائيل كأداة للاستعمار ، توجد إسرائيل كدولة استعمارية . بل إنها بقدر نجاحها فى دورها فى خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة . وإهدار طبيعة إسرائيل كدولة استعمارية يقود إلى أحد أمرين : الاقتناع بأن التفاهم مع أمريكا ينهى الخطر الإسرائيلى ، أو على العكس الظن بأن الصراع ضد الاستعمار بصفة عامة يغنى عن الصراع ضد إسرائيل على سبيل التخصيص . ولا يهون من شأن إسرائيل كدولة استعمارية ضيق الرقعة أو قلة عدد السكان . ولنتذكر أن هولندا وهى البلد الصغير كان يحكم إمبرطورية واسعة . وحتى اليوم تقف البرتغال شاهداً غنياً بالعبرة .

فلسطين والجزائر

وخلال كتابات ما بعد نكسة سنة ١٩٦٧ ظهر شيئاً فشيئاً أن جوهر الظاهرة الصهيونية الإمبريالية هو أن الدولة الصهيونية امتداد عنصرى للغرب الاستعمارى فى قلب الوطن العربى . إنها آخر محاولات الاستعمار الاستيطانى التى قام بها الغرب ، والتى اتخذت دائماً شكل هجرة بعض مئات الألوف من الأوربيين إلى أرض أجنبية يسيطرون عليها وينشئون منها دولة غربية « فيما وراء البحار » ، كما كان يقال بلغة القرن الماضى .

ولكن حقيقة إسرائيل كاستعمار استيطانى لا ينبغى أن تقودنا فوراً إلى القياس بأحداث الجزائر . فالمستوطنون فى إسرائيل قدموا من بلدان شتى ، وبالتالى ليس لهم « وطن أم » يفكرون فى العودة إليه جميعاً إذا ضاقت بهم سبل الحياة فى فلسطين . ولهذا فالشعور السائد بينهم هو أنهم يقاتلون وظهورهم إلى البحر . إن المستوطن الأوربى فى الجزائر كان من الناحية القانونية فرنسياً يعيش فى الجزائر . أما المستوطن الإسرائيلى فليس له جنسية أخرى . وبالتالى عليهم أن يستميتوا من أجل البقاء . ومن ناحية أخرى ، قدم عدد كبير من هؤلاء المستوطنين من البلاد العربية . وليس خافياً أن السياسة الخاطئة التى عمدت إليها بعض الحكومات العربية فى تشجيع اليهود على مغادرتها نهائياً قد لعبت دوراً حاسماً فى الدعم البشرى لإسرائيل . فى الخمسينات كانت موجة الفرار من أوربا قد انحسرت بعد انهيار النازية واستقرار الأوضاع فى شرقى القارة وغربيها ، ولولا يهود اليمن ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين إلى إسرائيل على النحو الذى تم به . ومهما يكن من أمر ، فهذا الفريق من المستوطنين الإسرائيليين ليس أوربياً ولا يفكر فى العودة إلى أوربا . ومن ناحية ثالثة نشأ فى إسرائيل جيل جديد « السابرا » ولد بها وسط دعاية أيديولوجية مركزة تفهمه أن تلك هى أرضه وأرض آبائه ولا يعرف لنفسه وطناً آخر . وأخيراً ، لم ينتشر المستوطنون داخل بلد أغلبية سكانه من قومية أخرى ، كما كانت الحال فى الجزائر . بل فرضوا لوجودهم مرحلياً حدوداً لهم فيها الأغلبية الواضحة ، وزاوجوا بين التوسع الإقليمى وطرد السكان العرب بغية أن تكون لهم الأرض خالصة . وكل تلك أمور تعقد ظاهرة الاستيطان الإسرائيلى . ويتعين دائماً أخذها فى الحسبان .

٢

المخطط الصهيونى : أبعاده ووسائله

الاستعمار الاستيطانى

حقاً إن إسرائيل فى الجوهر مشروع استعمار استيطانى أوربى أقامته الصهيونية العالمية . فالهجرة إلى فلسطين ظلت إلى ما بعد قيام دولة إسرائيل ، أوربية خالصة . ولم يهاجر يهود الشرق إلى « أرض الميعاد » إلا على أثر المشكلات التى خلقها فى البلاد العربية قيام تلك الدولة وولاء بعضهم لها على حساب الوطن الذى نشئوا فيه ، وسياسة الحكومات العربية الرجعية التى ساعدت على هجرتهم . وهذا أمر مفهوم تماماً . فأوربا هى موطن اضطاد اليهود الذى كان « روتينياً » عادياً طوال العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، والذى اشتدت وطأته فى شرقى أوربا حيث يكثر عدد اليهود وحيث تخلفت الثورة البورجوازية . وليس هنا مجال البحث المستفيض حول ظاهرة اللاسامية فى أوربا . ولكن التعصب العنصرى يحكمه ، كما يقول مكسيم رودنسون ، قانون أساسى ، وهو أنه يشتد كلما التقت الفوارق العنصرية — حقيقية كانت أو مدعاة — مع فوارق اقتصادية . وقد احترف اليهود فى العصور الوسطى تجارة المال والإقراض بالفائدة ، كانوا الرأسماليين فى وسط مجتمع إقطاعى ، فحل بهم سخط الإقطاعيين ورقيق الأرض فى آن واحد . ولكن حين نمت الرأسمالية فى أوربا الغربية على مستوى المجتمع كله اختفت المشكلة اليهودية ، لأن أوربا الغربية غدت — كما قال ماركس — كلها يهودية ، أى رأسمالية . ومهما يكن من أمر ، فإن ما يستحق الاهتمام هو أن اليهود

المضطهدين ، كانوا يهاجرون قبل قيام الحركة الصهيونية ، كغيرهم ممن تضيق بهم أسباب الحياة فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، ضمن تيارات الهجرة الأوربية الأساسية : إلى العالم الجديد ثم إلى أستراليا ونيوزيلاندا[1] . . . إلخ . ولكن الصهيونية حاولت منذ البداية تغيير هذا الاتجاه . وينبغى أن ننبه هنا إلى أن الصهيونية فى البداية لم تكن تصر على فلسطين بالذات ، وإنما كانت تحاول إقامة دولتها أيضاً فى سوريا . بل إن هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الإنجليز والخديو فى تنفيذ المشروع فى شبه جزيرة سيناء . ومن ثم يتضح أن القضية لم تكن فى المحل الأول « إيماناً بالوعد الإلهى فى أرض كنعان » وإنما كانت رغبة من الصهيونية كقوة متميزة فى المشاركة فى اقتسام تركة « الرجل المريض » كما كانت تسمى الإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت . لقد نجح كبار الرأسماليين اليهود فى أوربا فى احتلال مكانة مرموقة فى المجتمع الرأسمالى وتمتعوا بكل ما تضفيه الثروة من مزايا فى ذلك المجتمع ، وتولوا مناصب الحكم وحصلوا على ألقاب الشرف . ولكن ذكريات الازدراء فى الماضى ، ومظاهر الاضطهاد فى شرق أوربا كانت تحملهم على التفكير فى إقامة دولة تكون خالصة لهم وركيزة لإمبراطورية واسعة . وهكذا شجع عدد كبير منهم الصهيونية التى جندت جماهيرها بين يهود شرقى أوربا بعزلهم عن الحركة الاشتراكية وصرفهم عن النضال من أجل تحرير الأوطان التى ولدوا فيها . وهكذا كانت الصهيونية تحاول وسط السباق

---

(١) والدليل على ذلك هو عدد اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية (٥,٥ ملايين) وهو يقارب نصف عدد اليهود فى العالم كله . وحتى سنة ١٩٢٤ بلغ عدد اليهود المهاجرين من شرق أوربا أكثر من مليونين ونصف المليون . وقبلهم كانت الهجرة أساساً من ألمانيا حتى ١٨٧٠ حين سوى القانون الألمانى بين اليهود وغيرهم من المواطنين .

الإمبريالى المحموم حول أشلاء إمبراطورية آل عثمان أن تقتطع لنفسها نصيباً فى وقت بلغ فيه الاستعمار القديم ذروته. ولكن قادة الصهيونية لم يكونوا متمردين على أوربا التى اضطهدت اليهود ونكلت بهم كأفظع ما يكون التنكيل، بل إنهم كانوا يحسبون ويفكرون كأوربيين[١]. والواقع التاريخى يناقض ما تزعمه الصهيونية من أن يهود أوربا كلهم من أصل عبرانى. فقد تبنى بعض الأوربيين اليهودية كدين. واختلطت دماؤهم بدماء الشعوب التى عاشوا فيها خلال قرون طويلة، فليس هناك عنصر بشرى نقى من كل اختلاط. وتكفى نظرة واحدة للفروق الحضارية بل الجسمانية بين الصقالبة (السلافيين) من يهود شرقى أوربا، وبين يهود فرنسا أو إيطاليا. كما أن يهود غرب أوربا، ومنهم كان معظم الرأسماليين، كانوا قد تمثلوا تماماً الحضارة الغربية وأنبتت كل صلة لهم بماضى العبرانيين السحيق وتقبلتهم مجتمعاتهم مواطنين كاملى الحقوق. لكل ذلك كانت القيادة الحقيقية للحركة الصهيونية تعتبر نفسها جزءاً من الاستعمار الأوربى، ولا تسعى إلا لمجرد التميز فى داخله للاشتراك، كطرف مستقل، فى اقتسام الكرة الأرضية. ومن ثم كان الاهتمام بالشرق العربى يرجع فى المقام الأول للأهمية الاستراتيجية البالغة لهذه المنطقة التى جعلت منها المسرح الأول للصراع العنيف بين كل الدول الأوربية منذ حملة نابليون إلى مصر. فمن يضع قدمه فى هذه

---

(١) ولكن بعض يهود شرقى أوربا من صغار الحرفيين والعمال الذين هاجروا من المستعمرات الأولى (الرواد — كما يسمونهم فى إسرائيل) كانوا رافضين لحضارة أوربا الرأسمالية، متأثرين بالمثل العليا الاشتراكية، وكانت فكرة «العودة إلى الأرض المقدسة» عندهم مقترنة ببعض تصورات عن نوع من «الاشتراكية العبرانية». وهذا هو جذر ما يسمى الاتجاه الاشتراكى القديم فى إسرائيل.

المنطقة يمد يداً فى إفريقيا وأخرى فى آسيا ، فى حين يظل على قرب نسبى من أوربا .

وقد حدد هرتزل الأمور بأوجز عبارة حين كتب فى ١٩٠٨ يقول : « إن دولة يهودية فى فلسطين أو سوريا ستكون امتداداً للحضارة الغربية وحصناً ضد الهمجية الشرقية » . فمؤسس الحركة الصهيونية لم يكن يفكر فى يهود الشرق « المتخلفين » وإنما كان يفكر فى يهود أوربا ويراهم جزءاً من حضارتها . أن هرتزل بالرغم من كل نظريته العنصرية فى تمييز اليهود يؤمن بأنهم فى النهاية أوربيون . وإذا قدر للصهيونية بعد ذلك أن تهتم بيهود البلاد العربية ، فإنما ذلك يماثل محاولة الاستعمار الغربى اجتذاب « مسيحيي الشرق » : اهتمام ظاهره أن هؤلاء القوم (بحكم دينهم أو عنصرهم) أكثر استعداداً للتحضر ، وجوهره سياسة فرق تسد ؛ بالإضافة إلى احتياج الصهيونية إلى يهود الشرق لدعم إسرائيل سكانياً بعد انحسار موجة الهجرة الأوربية . وليس أدل على ذلك من وضع اليهود الشرقيين داخل الدولة الصهيونية كمواطنين من الدرجة الثانية .

ويقول بعض المثقفين الغربيين الذين ينتسبون إلى اليسار إن إسرائيل ليست استعماراً استيطانياً ، لأن الاستعمار الاستيطانى فى نظرهم يقوم على فكرة استغلال قوة عمل أهل البلاد الأصليين ، وسياسة إسرائيل كانت الحلول محل أهل فلسطين [1]. وهذا النظر يعمم بعض تجارب الاستعمار الاستيطانى ولا سيما فى الجزائر وجنوب إفريقيا . فى حين أنه يغفل أن أكبر تجارب الاستيطان تمت على أساس إبادة أهل البلاد

---

(١) أفاض جان بول سارتر فى عرض وجهة النظر هذه خلال مناقشة أجراها بالقاهرة مع أسرة مجلة « الطليعة » .

الأصليين . وأعظم شاهد على ذلك مصير الهنود الحمر فى الولايات المتحدة الأمريكية . لقد حرص الأوربيون هناك على التخلص من أهل البلاد ، لدرجة أنهم حين لمسوا الحاجة إلى توفير يد عاملة بأبخس الأثمان لجئوا إلى استيراد الرقيق من إفريقيا ، ونظموا النخاسة على أوسع نطاق عرفه التاريخ ، وكشفوا عن مدى إيمان الرأسماليين بالحرية والمساواة والإخاء التى جعلت منها الرأسمالية الغربية شعارات لثوراتها ضد الإقطاع . ومن ناحية أخرى لم يكن بوسع الصهيونية أن تدعى استعمار منطقة الشرق العربى كلها كما فعل الإنجليز بأستراليا مثلا. ومن ثم كان عليها أن تركز جهودها فى جزء محدود ثم تسعى للتوسع والسيطرة .

التوسع الإقليمى

ومن يتأمل التطور التاريخى لتنفيذ المخطط الصهيونى يرى بوضوح منهج الصهيونية فى التوسع . فقد بدأت الحركة الصهيونية بالدعوة بين اليهود فى أوربا الشرقية ، وبالذات فى روسيا القيصرية ، للهجرة إلى فلسطين . وبدأت بالفعل وفود من المهاجرين تفد إلى الأرض المقدسة دون أى سند ، اللهم إلا نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان سائداً فى الإمبراطورية العثمانية والذى كان يبيح للدول الأجنبية التدخل باسم « حماية رعاياها » لتوفر لهم فى ممتلكات « الدولة العلية » وضعاً يفضل وضع المواطن الأصلى فى كثير من الأمور . وكانت الهجرة فى البداية محدودة للغاية لعدة أسباب . فالدعوة الصهيونية كانت حركة فى بدايتها . واليهود الذين كانوا يرغبون فى الهجرة كانوا يفضلون العالم الجديد وأستراليا ونيوزيلاندا لاحتمالات النجاح والثراء الواسعة التى كانت معقودة على تلك البلاد الجديدة الغنية . والمهاجر اليهودى إلى فلسطين لم يكن له وضع متميز ، بل كان عليه أن يستمد الحماية من جنسية الدولة التى هاجر منها .

ولكن كان لا بد من بداية . ونشطت الوكالة اليهودية منذ إنشائها فى جميع الأموال من أغنياء اليهود لتمكن لفقرائهم المهاجرين إلى فلسطين أسباب الاستقرار . واستفاد الصهاينة من الأوضاع الإقطاعية السائدة آنذاك فى فلسطين وفى وجود عدد من كبار الملاك غير العرب أو غير الفلسطينيين ، فاستخدموا الوسائل الاقتصادية للحصول على الأرض بصورة « قانونية » عن طريق الإقراض ثم نزع الملكية لعدم السداد أو عن طريق الشراء . وهكذا نشأت المزارع الأولى « الكيبيوتز » ، وظلت أرضها ملكاً للوكالة اليهودية ضماناً لاستمرارها حتى ولو عاد المهاجر فغادر فلسطين إلى أوروبا أو أمريكا . وكان التبرير الدينى لهذا الوضع هو أن الأرض « ملك للشعب اليهودى كله » . وكان المهاجرون يتقبلونه إما لأنه لم يكن لديهم خيار ، وإما لتعلقهم بفكرة الملكية الجماعية وعدم تحمسهم للملكية الفردية الرأسمالية .

وكانت الخطوة التالية الحصول من المستعمر البريطانى على ترخيص بإنشاء « وطن قومى » فى فلسطين ، ثم تأكيد هذا الترخيص بقرار من عصبة الأمم التى كانت تسيطر عليها الدول الاستعمارية الأوربية سيطرة كاملة . وكانت أهم دلالة عملية لوعد بلفور المشئوم هى الترخيص لأعداد معينة من اليهود بالهجرة إلى الأراضى المقدسة بصفتهم يهوداً ينتمون إلى المنظمة الصهيونية العالمية وتمثلهم لدى سلطة الانتداب الوكالة اليهودية . لم يعد اليهود يهاجرون محتفظين بجنسياتهم الأصلية ليعيشوا كأجانب ، وإنما أصبحت الهجرة تعنى التخلى عن الجنسية الأصلية واكتساب « الرعوية البريطانية » بصفة مواطن فى فلسطين . لقد وفد المهاجرون أولا كأجانب ، ثم أصبحوا يفدون ليكتسبوا صفة المواطن بمجرد حلولهم بأرض فلسطين .

وكانت الخطوة التالية هى أن يطرد المواطن الجديد المفروض بقوة

الجيش البريطانى ، المواطن الأصيل من أرض آبائه وأجداده . ولم يكن من المتصور أن تطرد الصهيونية الفلسطينيين من أرضهم كلها دفعة واحدة . ولذلك كان من الطبيعى أن ترفع شعار التقسيم . وكان الهدف هنا واضحاً وهو الحصول على إقليم غالبية سكانه من اليهود ليكون له وضع الدولة المستقلة — يشكل نقطة الارتكاز لكل توسع مقبل . ومن هنا كان إصرار الصهيونية الرهيب على تخريب أى حل لمشكلة فلسطين يقوم على تعايش سكانها من العرب واليهود فى ظل دولة واحدة أو حتى دولة اتحادية على النمط السويسرى كما اقترح آنذاك . ومن هنا كانت أعمال الإرهاب الوحشية مثل مذبحة دير ياسين التى استهدفت خلق جو من الرعب يحمل العرب على ترك أراضيهم ليكون لليهود الأغلبية فى حدود التقسيم .

ولكن قرار التقسيم الذى أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وقبلته الصهيونية ، لم يكن فى نظر قادتها إلا الخطوة الأولى . ولذلك فإنهم لم ينفذوا منه إلا ما كان فى صالحهم ، وهو الإقرار بمبدأ دولة مستقلة لهم ، أما وجود دولة أخرى عربية ، ووجود شكل من الوحدة الاقتصادية بين الدولتين ، وقيام لجنة وصاية من الأمم المتحدة لمتابعة تنفيذ القرار وصيانة حقوق كل الأطراف المعنية ، فقد ضربت به القيادات الصهيونية عرض الحائط وجعلت منه نصاً ميتاً سرعان ما انسحب عليه ظل النسيان . بل لقد ذهب الصهاينة إلى أبعد من هذا فى الاستهتار بقرار الهيئة الدولية الذى يتمسكون به شكلا كسند شرعى لوجود دولتهم . لقد احتلت قوات الهاجاناه يافا وعكا مثلا قبل ١٥ مايو ١٩٤٨ . والمدينتان واردتان فى قرار ٢٩ نوفمبر ضمن حدود الدولة العربية . واحتلالهما سابق لتاريخ انسحاب القوات البريطانية ، وبالتالى سابق لتدخل الدول الربيعة الذى اتخذته إسرائيل ذريعة لضم أجزاء أخرى واسعة من إقليم

الدولة العربية (١) . كما تعمدت إسرائيل تأخير توقيع اتفاقية الهدنة مع شرقى الأردن حتى يتم لقواتها احتلال إيلات والحصول على منفذ على خليج العقبة . وحين تم توقيع اتفاقيات الهدنة سنة ١٩٤٩ كان الرأى السائد فى الدوائر الصهيونية هو أن من مصلحة إسرائيل ألا تتقرر لها حدود دولية معترف بها ، لأن حدودها التى انتهت إليها حرب ١٩٤٨ ، فى نظرهم حدود مؤقتة . وتوالت تصريحات بهذا المعنى ليس من « المتطرفين » من أمثال مناحم بجين (الوزير الحالى) الذى أكد باستمرار أن إسرائيل يجب أن تضم بقية أرض فلسطين والضفة الشرقية للأردن ، وإنما كذلك من قائد إسرائيل الأول بن جوريون . بل إن ضابطاً برتبة كولونيل فى الجيش الإسرائيلى قال سنة ١٩٤٩ بصراحة : «لا نريد حدوداً نهائية الآن» وهذا الضابط هو موشى ديان . وما إن استقرت أوضاع إسرائيل نسبياً حتى عملت على تلمس الذرائع لعدوان جديد يتيح لها فرصة التوسع الإقليمى . وكان من الضرورى لذلك أن تخلق حالة من التوتر المستمر على الحدود ترهب بها الفلسطينيين الذين لجئوا إلى الأقطار العربية المجاورة وتستفز القوات المسلحة لتلك الأقطار . ولهذا بادرت باحتلال المناطق المنزوعة السلاح وفقاً لاتفاقيات الهدنة والتى كانت تفصل بينها وبين الدول العربية فخلقت بذلك حالة مواجهة مستمرة على المستوى العسكرى . وتعللت فى عام ١٩٥٦ وفى عام ١٩٦٧ بأعمال المقاومة الفلسطينية مدعية أنها من صنع الدول العربية لتحاول تبرير العدوان والتوسع . وفى هذا كله ما يلقى الضوء على ما تدعيه إسرائيل من الرغبة فى « حدود آمنة معترف بها» . فقد رفض الصهاينة فكرة الحدود النهائية كما رأينا ، كما أنهم

---

(١) ومع ذلك فقد نجحت الدعاية الصهيونية فى إيهام الرأى العام العالمى بأن العرب هم الذين بدءوا حرب سنة ١٩٤٨ . بل إن كثيراً من العرب تسرب إليهم هذا الاقتناع نتيجة لجعجعة الحكومات العربية آنذاك .

عملوا بتصفيتهم لوضع المناطق منزوعة السلاح على خلق التوتر على الحدود واستمراره .

وفى منطق الدعوى الصهيونية يبدو التوسع الإقليمى حتمية ملازمة للوجود الإسرائيلى . فالهدف المعلن لإسرائيل وللصهيونية هو تجميع اليهود كلهم أو معظمهم فى إسرائيل . ولا يتصور أن تستوعب تلك الدولة الصغيرة عشرة ملايين مثلا إلا إذا امتدت حدودها إلى آفاق بعيدة . ويمكن للمقارنة أن نذكر أن مجموع سكان سوريا ولبنان والأردن وعرب فلسطين يكاد لا يتجاوز سبعة ملايين .

ونحن لا نسوق رقم العشرة ملايين اعتباطاً . فقد دعا ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل السابق رسمياً عقب حرب يونية إلى إنشاء « إسرائيل الكبرى » بضم أجزاء من الأراضى التى احتلها الجيش الإسرائيلى بحيث يصبح سكان الدولة الصهيونية عشرة ملايين . وكثيراً ما يقول بعض المثقفين الغربيين إنه ليس من المنتظر أن تستمر الهجرة إلى إسرائيل بمعدلات مرتفعة . وإن وصول عدد سكانها إلى أضعاف الرقم الحالى حلم لن يتحقق . وحجتهم فى ذلك هى أن الغالبية العظمى من يهود « الدياسبورا » موزعة حالياً بين الاتحاد السوفييتى (حوالى ثلاثة ملايين) والولايات المتحدة (أكثر من خمسة ملايين ونصف المليون) . ويهود هاتين الدولتين لن يهاجروا إلى إسرائيل ، وإن اختلفت الأسباب فى ذلك . ويمكن الرد على هذا القول بأن مستقبل القضية العربية لا يتصور أن يترك معلقاً على تطورات السياسة الداخلية فى دول أخرى . فليس من المستحيل مثلا أن تتغلب على السياسة الداخلية فى الولايات المتحدة الأمريكية عناصر فاشية متطرفة تضيق على اليهود . إلا أن الأمر الأهم من احتمالات المستقبل هو حقائق واقع اليوم . وهذا الواقع هو أن إسرائيل بعدد سكانها الحالى كانت مدفوعة بالفعل نحو التوسع . وذلك لأن الإقليم الذى أقيمت

عليه الدولة الصهيونية يستحيل أن يأوى أكثر من مليونين من المهاجرين وأن يوفر لهم فى نفس الوقت مستوى المعيشة السائد فى أوربا . إن أعظم تناقض وقعت فيه التجربة الصهيونية هو أن البقعة التى كانت فى نظرها توفى بالغرض من الناحية الأيديولوجية باعتبارها « أرض الميعاد » كانت من الناحية الاقتصادية عاجزة عن استيعاب الهجرة المطلوبة . وإن بعض البيانات الاقتصادية الأساسية لتكفى لإظهار هذه الحقيقة بشكل لا يدع مجالا للشك .

فمساحة إسرائيل فى حدود هدنة عام ١٩٤٩ لا تزيد على ٢١,٠٠٠ كيلو متر مربع . وبالنظر لعدد السكان الذى بلغ فى أوائل سنة ١٩٦٧ قرابة المليونين ونصف المليون تكون كثافة السكان كبيرة نسبياً . ولكن الأدهى من ذلك هو أن ثلثى المساحة المذكورة مناطق صحراوية . وقد ترتب على ذلك أن ٦٠ ٪ من سكان إسرائيل يحتشدون فى مثلث الرملة — تل أبيب — حيفا ، بل إن ٣٠ ٪ منهم يقطنون العاصمة تل أبيب . ولإعطاء فكرة عن هذا الوضع الشاذ ، نسوق على سبيل المثال وضع إقليم « القاهرة الكبرى » الذى يشمل محافظة القاهرة وجزءاً كبيراً من محافظة الجيزة وأجزاء من محافظة القليوبية . فسكان هذا الإقليم يمثلون ١٢ ٪ من سكان الجمهورية العربية المتحدة . ويرى الخبراء أن هذا الإقليم مزدحم أكثر مما ينبغى ، وأنه لابد من تخطيط إقليمى على مستوى الجمهورية للحد من الهجرة إلى العاصمة . ومن ناحية أخرى تتميز أراضى إسرائيل فى المناطق القابلة للزراعة بالفقر الشديد . فليس بها دلتا خصبة ولا تربة غنية . والموارد المائية محدودة للغاية . ومشروعات الرى التى قامت بها الحكومة الصهيونية باهظة التكاليف ولم تسمح باستصلاح مساحات واسعة . لقد ارتفع نصيب الزراعة فى الاستثمارات الإجمالية من ١٦,٥ ٪ سنة ١٩٤٩ إلى أكثر من ٢٥ ٪ سنة ١٩٦٠ ومع ذلك لم يزد نصيب الإنتاج الزراعى فى الدخل

القومى إلا بنسبة تافهة : من ٩,٥ ٪ سنة ١٩٤٩ إلى ١٢,٥ ٪ سنة ١٩٦٠ . وبالرغم من الجهد الدعائى الضخم حول «تحويل صحراء النقب إلى جنات» لم تجرؤ حكومة تل أبيب على أن تنشر أى أرقام عن الاستثمارات التى تمت فى النقب ، والنتائج التى أدت إليها . والواقع أن المزارع التى أنشئت فى النقب تخدم فى الأساس أغراضاً عسكرية ، ولذلك فهى لا تخضع لأى تقويم اقتصادى . فهى مواقع أمامية محصنة ، سكانها مدربون عسكرياً ، وهى تابعة لوزارة الدفاع .

ولا يقف فقر الموارد الطبيعية عند هذا الحد . فجوف الأرض لا يحتوى إلا على بعض المعادن قليلة القيمة مثل الفوسفات . أما البترول والغاز الطبيعى فلم يتجاوز الإنتاج منهما ٢٠ ٪ من احتياجات البلد . كذلك لا توجد موارد كهربائية مائية ، ولذلك فإن التيار الكهربائى يخرج من محطات حرارية تعتمد على منتجات بترولية مستوردة مما يجعل سعره مرتفعاً. وفى مثل هذه الظروف يتعذر قيام صناعة قوية ونشيطة نظراً لافتقاد الطاقة المحركة والمواد الأولية الزراعية والمعدنية . حقاً لقد نجحت إسرائيل فى إنشاء بعض الصناعات. وأبرزها وأهمها هى بلا شك صناعة الماس . وهى نموذج بليغ للصناعة التى تدين بوجودها للاعتبارات السياسية والارتباطات المالية ولا تستند إلى أى أساس من الموارد الطبيعية للبلاد أو موقعها الجغرافى . فالماس « الخام » تستورده إسرائيل من جنوب إفريقيا . والماس المصنع تشتريه احتكارات الماس العالمية التى تنشط أساساً فى أمستردام. وكل ما تملكه إسرائيل فى هذا المجال هو خبرة صائغى الماس من اليهود الهولنديين الذين نجحت فى تهجيرهم إلى الأراضى المقدسة . ويمثل الماس المصنع ٣٥ ٪ من صادرات إسرائيل . وهذا فى ذاته دليل ساطع على مدى خضوع الصناعة الإسرائيلية للمصالح الاستعمارية . فاستمرار صناعة الماس يتوقف من ناحية على رضا النظام العنصرى الرجعى فى جنوب

إفريقيا ، ومن ناحية أخرى على تشجيع الاحتكارات العالمية ذات الجنسية الهولندية . وبالإضافة إلى ذلك حاولت إسرائيل تنمية بعض الصناعات الخفيفة مثل الدواء والمنسوجات والمعدات الكهربائية والإليكترونية . ولكن نموها يصطدم بضيق السوق المحلية . والمقاطعة الاقتصادية العربية لا تترك أمام إسرائيل سبيلا لتصريف إنتاجها الصناعى إلا فى أسواق بلاد أكثر منها تقدماً (الدول الأوربية) أو بلاد تنافسها فيها منتجات أمريكا واليابان وفرنسا وألمانيا الغربية . . . إلخ .

الموارد الأجنبية والتوسع الإقليمى

ومع ذلك ، وبالرغم من كل تلك الظروف غير المواتية ، نجحت إسرائيل خلال الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٥ فى تحقيق معدل نمو اقتصادى يلى مباشرة ما حققته اليابان ويدور حول ١١ ٪ سنوياً . وهكذا يتحدث الصهاينة عن المعجزة التى صنعتها إسرائيل . وينطلقون فى جو عنصرى كامل يمجدون مزايا « شعب الله المختار » وعبقريته . ولكن الاقتصاد لا يعرف المعجزات . وكل ظاهرة اقتصادية تجد تفسيرها فى الواقع الاقتصادى ذاته . والمعجزة الإسرائيلية تجد تفسيرها فى الموارد المالية الهائلة التى حصلت عليها الدولة الصهيونية ، وهى موارد لم يسبق لها مثيل ولم تحظ بمثلها أى دولة . ويجب أن نقف قليلا عند هذه الموارد ونحاول تصنيفها :

١ ـ لقد بدأت إسرائيل حياتها بعملية نهب استعمارى تقليدى ، تمثلت فى الاستيلاء على ممتلكات الفلسطينيين الذين طردتهم من أراضيهم . فقد قررت غداة الهدنة فرض الحراسة على أموال الغائبين . ثم تعللت بعدم عودتهم ـ وهى التى تحظر تلك العودة ـ لتبرير المصادرة النهائية ، وهذا هو الأسلوب الذى استخدمه الاستعمار الاستيطانى فى كل أرض حل بها .

لقد كانت الإدارة الفرنسية فى القرن الماضى تتذرع بأتفه الحجج لتصادر أرض الجزائريين وتعطيها للمستوطنين . وكذلك كانت سيرة الإنجليز فى كينيا . . . إلخ . ويقدر الاقتصادى المعروف يوسف صايغ قيمة الممتلكات التى نهبتها إسرائيل على هذا النحو بحوالى سبعمائة مليون جنيه إسترلينى ، أى قرابة ١,٥٠٠ مليون دولار . ويكفى تدليلا على أهميتها أن ٢٥٠,٠٠٠ إسرائيلى كانوا ، فى سنة ١٩٥٤ ، يعيشون على العقارات التى « تركها » العرب (أى حوالى ثلث السكان اليهود فى ذلك الوقت) . وقد ساهمت بريطانيا فى تيسير عملية النهب ، فأفرجت لحساب إسرائيل عن أرصدة فلسطين الإسترلينية المجمدة فى سنة ١٩٤٨ دفعة واحدة .

٢ — وتلقت إسرائيل مبالغ طائلة تحت أسماء مختلفة دون أى التزام بردها كلياً أو جزئياً . ويقدر ما حصلت عليه فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ (أى بعد سنتين من قيام الدولة الصهيونية وما صحب إنشاءها من تبرعات ضخمة) بمبلغ ٣٠٠٠ مليون دولار موزعة على النحو التالى بترتيب أهمية المصدر :

(ا) التعويضات الألمانية : ١,٦١١ مليون دولار . وتلك التعويضات فضيحة فى تاريخ العلاقات الدولية . فألمانيا الغربية قد دفعت ٨٤٧ مليون دولار تعويضاً لمواطنين إسرائيليين عن أضرار لحقت بهم أو بأفراد من أسرهم فى ظل النازية . ولا شك أن مبدأ التعويض عن جرائم النازيين مبدأ سليم . ولكن المريب فى الأمر هو أن ألمانيا الغربية لم تدفع تعويضاً لأحد خارج إسرائيل . فلم تعوض مثلا البولنديين أو التشيك أو اليوغوسلافيين أو الفرنسيين أو السوفييت . . إلخ . بل إن اليهود الذين يحملون جنسية غير الجنسية الإسرائيلية لم يحصلوا حيث يقيمون على أى تعويضات ألمانية . ولكن الدلالة

العظمى لموقف ألمانيا تتضح فى دفعها مبلغ ٧٦٤ مليون دولار للحكومة الإسرائيلية مباشرة كتعويض عما لحق اليهود بصفة عامة حيث تعذر تحديد ضرر حل بشخص أو بأسرة على وجه التحديد . فكأن حكومة بون تعترف بإسرائيل ممثلا لليهود فى كل أرجاء العالم وأياً كانت جنسيتهم .

وهى تعوض إسرائيل مثلا عما لحق بيهود بولندا أو أكرانيا ..! وعبثاً يبرر ساسة بون هذا الموقف بعقدة الذنب . لأننا نتساءل عندئذ هل أذنبت النازية فى حق اليهود وحدهم . ألم يقتل النازيون مئات الألوف من كل شعوب أوربا فى غير ميادين القتال؟ ألم يهلك فى معسكرات الاعتقال إلى جانب اليهود عشرات الألوف من معارضى النازية والمتمردين ضد القهر والاحتلال الألمانى ؟ كذلك لا يمكن تفسير موقف حكومة بون بالضغط الأمريكى . فألمانيا الغربية اليوم قوة اقتصادية من الطراز الأول بوسعها أن تضغط على أمريكا، ومن باب أولى من السهل عليها أن ترفض لها طلباً . والدليل على ذلك أنها رفضت حتى الآن توقيع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية رغم حرص الولايات المتحدة على تلك المعاهدة . وإذا كانت هناك مساومة مع أمريكا بشأن مساندة إسرائيل فإن موضوعها ليس مبدأ المساندة ولا حتى حجمها، وإنما ضمان تأييد الولايات المتحدة لمواقف بون العدوانية المتطرفة إزاء ألمانيا الديمقراطية وبولندا . إن واقع الأمر أكثر تعقيداً من ذلك . إن تحالف الصهيونية والرجعية الألمانية ظاهرة قديمة . لقد رحب النازيون بفكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين لأنها تتفق مع فكرهم العنصرى ومع رغبتهم فى التخلص من يهود ألمانيا . وكانت حكومة هتلر حتى سنة ١٩٣٧ تسمح لليهود الذين يغادرون ألمانيا

إلى فلسطين بتحويل جزء كبير من أموالهم بشرط أن يتخذ شكل سلع ألمانية ، ونشطت الحركة الصهيونية فى تصريف تلك السلع فى منطقة الشرق الأوسط كلها . واليوم نجد فى ألمانيا الغربية المقر الرئيسى لنشاط شبكات التجسس الإسرائيلى على البلاد العربية . ويكفى دليلا على ذلك حالة « لودز » ذلك الضابط السابق فى الجيش الهتلرى الذى كان يتجسس لإسرائيل فى القاهرة والذى طالبت إسرائيل بتسليمه إليها ضمن أسرى الحرب . وبالإضافة إلى هذا الالتقاء « الأيديولوجى » ، تنظر ألمانيا الغربية إلى إسرائيل باعتبارها منفذاً لها فى الشرق فى حلمها الاستعمارى القديم « الزحف نحو الشرق » . وهى تشترك فى عدد من الصناعات الإسرائيلية وفى مقدمتها الأبحاث الذرية[1] . وتكتمل عناصر الفضيحة حين يقبل حكام إسرائيل الذين يتشدقون دائماً بما عاناه اليهود من الاضطهاد تعويضاً عن ملايين القتلى من اليهود سلاحاً يستخدمونه فى قتل العرب . إن العقلية العنصرية النازية أو الصهيونية لا تقيم وزناً لأى اعتبار أخلاقى ، وتؤمن بالقوة والسيطرة والقهر ، وتتلمس لها كل الوسائل والسبل بغض النظر عن المبادئ .

(ب) **التبرعات اليهودية :** وتبلغ فى نفس الفترة ١,٥٣٥ مليون دولار . فالحركة الصهيونية تستنزف اليهود فى كل بلاد العالم لصالح إسرائيل. وقد قدمت المنظمات اليهودية فى مختلف بلاد العالم إلى إسرائيل تبرعات تبلغ ١٠٣٥ مليون دولار . أما الباقى وقدره ٥٠٠ مليون

---

(١) بل إن تأثير ألمانيا الغربية لعب دوراً فى تحديد موقف رومانيا من إسرائيل بعد عدوان يونية ١٩٦٧ . فمن المعروف أن هناك مشروعات مشتركة بين الدول الثلاث تقدم فيها بون التمويل ، وتوفر إسرائيل الخبرة الفنية . وعقب اعتراف بوخارست بحكومة ألمانيا الغربية ، عقدت مع إسرائيل معاهدة تعاون اقتصادى .

دولار فهو عبارة عن تحويلات من يهود فى الخارج إلى يهود فى إسرائيل . وسنعود إلى الحديث عن الوسائل التى تلجأ إليها الصهيونية العالمية لابتزاز الأموال لصالح إسرائيل . ونريد أن نشير هنا إلى حقيقة أن أكثر من ثلثى هذا المبلغ قد جاء من اليهود الأمريكيين . ولا يفسر هذا فقط عدد اليهود فى الولايات المتحدة وثراؤهم . وإنما يفسره أيضاً تأييد حكومة واشنطون لحركة التبرع لإسرائيل . ويكفى للتدليل على ذلك أن هذه التبرعات تخصم من الدخل الخاضع للضريبة الأمريكية أياً كانت قيمتها .

(حـ) **هبات من الحكومة الأمريكية:** وقد بلغت فى نفس الفترة ٢٩٤ مليون دولار . وهكذا لا تقتنع الحكومة الأمريكية بتشجيع اليهود الأمريكيين على التبرع لإسرائيل ، بل تمنح من أموال دافع الضريبة الأمريكى هبات مباشرة للدولة الصهيونية .

٣ — والمورد المالى الثالث الذى اغترفت منه إسرائيل هو القروض والاستثمارات . وفى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ بلغ إجمالى القروض التى حصلت عليها إسرائيل ١٢٢٦ مليون دولار ، وهى كلها قروض طويلة الأجل لأننا نحينا جانباً القروض قصيرة الأجل لضعف دلالتها فيما يتعلق بالنمو الاقتصادى . ومن هذا المبلغ ٣٨٠ مليون دولار قدمتها الحكومة الأمريكية مباشرة أو عن طريق بنك «الاستيراد والتصدير» المملوك لها . ومنها ٤٥٠ مليون دولار جاءت فى شكل اكتتاب فى سندات تصدرها دولة إسرائيل . وقد تمت تغطية هذه السندات كلها تقريباً فى الولايات المتحدة ، وإذا كان من المعقول أن نفترض أن اليهود الأمريكيين قد اكتتبوا فى جزء هام منها ، فإنه من المعروف أيضاً أن كثيراً من الشركات الاحتكارية الأمريكية ، بغض النظر عن دور اليهود فيها ، تكتتب فى تلك السندات .

أما الاستثمارات ، ومقدارها ٧٧٩ مليون دولار ، فقد قامت بها أساساً احتكارات أمريكية كبرى مثل : فورد ، وكيزر - فريزر ، وكوكا - كولا . . . إلخ . وبعض الاحتكارات الألمانية والفرنسية .

وخلاصة ذلك أنه إذا تركنا جانباً كل ما أنفق قبل قيام دولة إسرائيل وأثناء حرب ١٩٤٨ وما تلاها مباشرة ، نجد أن الدولة الصهيونية قد حصلت من الغرب على سبعة آلاف مليون دولار فى أربعة عشر عاماً . أى ما يساوى ثلاثة آلاف دولار لكل إسرائيلى ، وهو مبلغ يعادل ثلاثة أضعاف متوسط دخل الفرد فى إسرائيل فى سنة ١٩٦٤ . ! وقد حصلت إسرائيل على نصف هذا المبلغ تقريباً دون أى مقابل ودون التزام بالسداد أو دفع فوائد : هبة خالصة لطفل الاستعمار المدلل ; ولو حصلت الجمهورية العربية المتحدة على مثل هذا العون بنسبة عدد سكانها لأتيحت لنا موارد تعادل تكاليف بناء السد العالى أكثر من أربعين مرة . . !

بهذه الموارد الضخمة وحدها امكن لإسرائيل ان تحقق معدل نمو مذهل طوال الفترة المذكورة ، وأن تستوعب موجات متتالية للهجرة ، وتحافظ بعد تلك الموجات على معدل زيادة سكان لا يقل عن ٤ ٪ ، وتحقق مع ذلك ارتفاعاً منتظماً فى مستوى دخل الفرد . وهكذا كان من الممكن أن تعيش الدولة الصهيونية مؤقتاً دون توسع إقليمى . ولكن الأمور بدأت تتغير منذ ١٩٦٤ . فقد استنفدت إسرائيل التعويضات الألمانية . وبدأت أقساط القروض الخارجية تلقى عبئاً إضافياً على ميزان المدفوعات . كما أن جمع التبرعات كان من المستحيل أن يستمر إلى الأبد على نفس المعدلات . وبالفعل هبطت نسبة رأس المال الوافد من الخارج إلى الدخل القومى الصافى من ٣٤,٣ ٪ سنة ١٩٥٢ إلى ٢٤,٣ ٪ سنة ١٩٦٤ . وتوالى الهبوط بعد ذلك . فقد انخفض إجمالى رأس المال الوافد من ٦٢٩ مليون دولار سنة ١٩٦٤ إلى ٥٠٥ ملايين دولار سنة ١٩٦٦ . وكان التقدير

السائد أن الانخفاض سيستمر حتى يصل إلى ٣٠٠ مليون دولار فقط سنة ١٩٦٨ . وانعكس هذا الوضع فوراً على كل المؤشرات الاقتصادية . فقد انحدر معدل النمو إلى ٧ ٪ سنة ١٩٦٥ ثم إلى ١,٥ ٪ سنة ١٩٦٦ . ولأول مرة منذ نشأة إسرائيل انخفض مستوى متوسط دخل الفرد ، لأن عدد السكان زاد فى نفس السنة بنسبة ٢,٥ ٪ . وارتفعت نسبة البطالة من ٣,٣ ٪ فى سنة ١٩٦٤ إلى ٦,٦ ٪ فى سنة ١٩٦٦ ثم إلى ١٠,٥ ٪ فى ربيع سنة ١٩٦٧ . ولكن أخطر ما فى الأمر فى نظر قادة الصهيونية كان ازدياد عدد المهاجرين من إسرائيل بحيث تجاوز عام ١٩٦٦ عدد المهاجرين إليها . وفى هذه الظاهرة ضربة قوية لكل الأيديولوجية الصهيونية : فاليهود يغادرون بملء إرادتهم أرض الميعاد . ولم يتخيل قادة إسرائيل للأزمة مخرجاً إلا الحرب بهدف التوسع الإقليمى .

السيطرة الاقتصادية :

إن إسرائيل ليس أمامها من خيار إلا التوسع أو الانهيار الاقتصادى والبشرى . فأمام البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لا بد أن يهاجر من إسرائيل كل أولئك الذين يرفضون أن يعيشوا فى مستوى أقل من الذى عرفوه فى أوربا . وسيكون أول المهاجرين بالطبع من الفنيين والعلماء والخبراء الذين ترحب بهم أوربا وأمريكا . أى أن الهجرة لن تكون تكذيباً فقط لدعوى العودة ، وإنما إضعافاً لإسرائيل فى أهم قواها الحيوية .

على أن التوسع الإقليمى له حدود ودونه مصاعب . فإسرائيل لا تتوسع فى خلاء ، وإنما فى أرض تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ، قد خسرت فى تاريخها الطويل معارك كثيرة ، ولكنها كانت تنتصر فى النهاية وتحافظ على وجودها وشخصيتها القومية . ومن ثم فإن إسرائيل تسعى فى الوقت نفسه إلى السيطرة الاقتصادية على الشرق العربى . فليس من

الضروری — ولا الممكن — أن تمتد بالفعل دولة إسرائيل سيادياً من النيل إلى الفرات لتستكمل عناصر الاستعمار الاستيطانی بتوفير اتساع الرقعة واليد العاملة الرخيصة . وإنما يمكن أن تكون إسرائيل فی « حدود إقليمية معقولة » قاعدة صناعية تسيطر اقتصادياً على المنطقة المحيطة بها دون حاجة إلى احتلالها عسكرياً . فالحلم الذی يردده حتى بعض أولئك الذين يتكلمون فی إسرائيل عن السلام مع العرب هو تحقيق « التكامل الاقتصادی » للشرق الأوسط على أساس أن تكون إسرائيل قاعدته الصناعية وتكون الأقطار العربية مورد المواد الأولية وسوق تصريف المنتجات الصناعية . فالصناعة فی إسرائيل فی أمس الحاجة إلى المواد الأولية التی تنتجها البلاد العربية تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الأموال الاستعمارية الضخمة التی تستطيع تعبئتها . وسوق إسرائيل الداخلية كما قلنا ضيقة لا تستوعب إنتاجاً يذكر ، والمنافسة فی الأسواق الأوربية عسيرة ، ومن ثم كان أمل إسرائيل هو أن تستوعب البلاد العربية إنتاجها الصناعی . وليس هذا مجرد استنتاج أو استقراء للنوايا . فالاقتصادی الإسرائيلی شارل مزراحی يكتب بصريح العبارة فی مجلة « اسبری » الفرنسية (سبتمبر ١٩٦٦) « إن البلاد العربية تنتج البترول والقطن وغيرهما من المواد الأولية التی تحتاج إليها الصناعة الإسرائيلية ، ونحن نملك من أسباب التقدم التكنولوجی ما يسمح لنا بتصنيع تلك المواد وتزويد الأسواق العربية بما تحتاج إليه من منتجات صناعية » . وفی ذهن قادة الاقتصاد الإسرائيلی ذكريات فترة الحرب العالمية حين نشأت الصناعات « اليهودية » الأولى فی فلسطين ، وأهمها الأدوية ، وكان إنتاجها يباع فی الأسواق العربية بفضل قرارات « مركز تموين الشرق الأوسط » البريطانی .

بل أكثر من ذلك يمكن أن تصبح إسرائيل بمثابة « كنتوار » للاحتكارات العالمية تقيم فيها مصانع للتجميع والتركيب والتجهيز للكثير

من منتجاتها التى تبيعها بالفعل فى الأسواق العربية . فمثلا حين أقامت شركة فورد مصنعاً للتجميع فى إسرائيل فإن لنا أن نتساءل كم سيارة فورد يمكن أن يستوعبها الاقتصاد الإسرائيلى سنوياً ؟ وعندئذ نجد المشروع غير معقول . ولابد أن يكون قد روعى فى تنفيذه البيع لتركيا واليونان وقبرص . . . إلخ . أو تزويد الجيش الإسرائيلى بالمركبات . ولكن فى حالة وجود علاقات اقتصادية عادية مع الدول العربية يمكن أن يزود المصنع المذكور كل السوق العربية ؛ بهذه النظرة تهدف إسرائيل إلى ضرب الاقتصاد اللبنانى القائم على تجارة الترانزيت وتصفية وضع بيروت ، وأن تكون تل أبيب هى نافذة المنطقة على الحياة الغربية حتى فى عبثها .

ولا شك أن للبترول مكانة خاصة فى خطط إسرائيل . فالصهيونية العالمية تريد أن تكون شريكاً فى استغلال البترول العربى ، وأن تكون إسرائيل قاعدة لتصديره ومركزاً لتصنيعه تستقر فيه صناعة بتروكيميائية ضخمة تغطى احتياجات المنطقة كلها . إن للعناصر الصهيونية مصالحها فى احتكارات البترول التى تعمل فى الأرض العربية . وهى ترغب ولا شك فى أن تستفيد إسرائيل من البترول وأن تدب الحياة فى خطوط الأنابيب وتتضاعف طاقة مصفاة حيفا ، وأن تنتقل من مجرد التكرير إلى تصنيع البترول والبتروكيميائيات ، بل إن المطامع يمكن أن تصل إلى حدحصول شركات إسرائيلية على امتيازات بترولية فى البلاد العربية .

وبعبارة أخرى تعرض علينا إسرائيل كأساس للسلام والوئام « الميثاق الاستعمارى » Pacte colonial الذى فرضه الاستعمار على كل المستعمرات . والخلاف فى إسرائيل بين « المتطرفين » و « المعتدلين » ليس خلافاً حول الهدف ، وإنما حول الوسائل . فالمتطرفون يريدون فرض الميثاق الاستعمارى بالقوة ، بأساليب الاستعمار القديم . أما المعتدلون فيرون أن هذا الأسلوب يجافى روح العصر ومن ثم لا بد من الاعتماد

على أساليب الاستعمار الجديد . ومن المعروف أن هذه الأخيرة تقوم على الروابط الاقتصادية التى تفرضها الدولة الاستعمارية عن طريق التسلل إلى اقتصاد البلاد وتنمية فئات اجتماعية موالية لها وبث الفرقة والشقاق على أسس قومية أو إقليمية أو قبلية . . . إلخ . ولهذا فإن المقاطعة العربية لإسرائيل ، ورفض الاعتراف بها والإصرار على عدم التسليم بالأمر الواقع ليست مجرد موقف غضب للكرامة المهدرة والحق السليب فحسب ولكنها وسائل فعالة فى مواجهة المخطط الصهيونى ، بل إنها كانت أنجح ما استخدم العرب من وسائل حتى الآن .

وليس خطر السيطرة الاقتصادية مقصوراً على الشرق العربى ، بل إنه يمتد كذلك إلى المغرب . فبين الإسرائيليين عشرات الألوف قدموا من الشمال الإفريقى وعاشوا على فتات الاستعمار إبان سيطرته هناك، وما زالت تراودهم أحلام الرخاء السابق؛ وثروات دول المغرب العربى، من ليبيا إلى مراكش ، البترولية والمعدنية، يسيل لها اللعاب ، وإنتاج تونس والجزائر ومراكش من الموالح منافس قوى للإنتاج الإسرائيلى . . . . إلخ .

٣

الأيديولوجية الصهيونية

الصهيونية العالمية تريد إذن فى التحليل الأخير إقامة نوع من الدولة الاستعمارية تفرض سيطرتها على المنطقة كلها ، اقتصادياً على الأقل ، وتعمل كشريك صغير للإمبريالية العالمية : تخدمها وتستفيد منها . وككل مشروع للاستعمار الاستيطانى ، لا بد للمخطط الصهيونى من أيديولوجية تضمن تعبئة القائمين به وتحمسهم لتنفيذه ، وتحاول فى الوقت نفسه تبريره أمام الرأى العام العالمى . فالغزو الأوربى للشرق العربى فى العصور الوسطى تستر وراء الصليب . وكذلك فعل « الكونكوبستادور » حين دمروا حضارة الأنكا والأزتك فى أمريكا الجنوبية والوسطى ، يباركهم أساقفة إسبانيا باسم ملكها الذى كان يصف نفسه بأنه « الكاثوليكى جداً » . وفى شمالى أمريكا كان أولئك الذين غادروا أوربا فراراً من الاضطهاد الدينى أو السياسى ليبنوا فى العالم الجديد مجتمعاً أفضل لا يتورعون باسم ذلك المجتمع عن القضاء على الهنود الحمر أو استيراد الرقيق من إفريقيا يغذى بعرقه ودمه أرض القطن والتبغ . وغزا الاستعمار الأوربى إفريقيا تحت شعار نشر المدنية ومقاومة تجارة الرقيق ... إلخ . فما هى عناصر الأيديولوجية الصهيونية التى تؤثر بها فى اليهود أولا ، ثم فى الرأى العام العالمى ثانياً ؟

العنصرية فى صورة عارية

وأول سلاح فى الترسانة الأيديولوجية للصهيونية هو العنصرية . ففكرة هرتزل الأساسية فى إنشاء دولة لليهود تقوم على أساس اعتبار اليهود عنصراً

بشرياً متميزاً . وليست تلك أول دعوى عنصرية عرفتها البشرية فى تاريخها الحديث . ولكنها دعوى تصل بالفكر العنصرى إلى أبعد الحدود بشكل لا يكذبه العلم فحسب وإنما لا يتصور أن يتقبله العقل . فالعنصريون فى الولايات المتحدة يزعمون تفوق البيض على السود . ولا شك أن الإنسان العادى يرفض أن يكون للون البشرة نتائج على المستوى العقلى تهبط بالأسود إلى مستوى أدنى من الأبيض . ولكن على أية حال تلك دعوى عريضة تشمل مئات الملايين من البشر وتتخذ لها سنداً من مظهر مادى هو لون البشرة . والعنصريون فى جنوب إفريقيا أو روديسيا يستندون إلى نفس النظرة . أما العنصرية النازية فكانت تقوم على تمجيد العنصر الآرى ، وهو فى زعمهم مجموعة الشعوب التى تتكلم لغات تواضع علماء اللغة على ردها إلى أصل مشترك هو « الهندية الأوربية » التى لم يثبت تاريخياً أى أثر لها . أما العنصرية الصهيونية ، فهى تعصب عرقى فى أشنع صوره لأنها تزعم أن كل اليهود فى مختلف أرجاء المعمورة من نسل رجل واحد هو إبراهيم عليه السلام . . ! « فشعب الله المختار » ينحدر كله من الأسباط الاثنى عشر الذين رزقهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، الذى أطلق عليه اسم إسرائيل « لأنه قاتل ملاكاً من ملائكة الرب » ، ومعنى ذلك أن نسل يعقوب ظل نقياً خالصاً من كل اختلاط بدم آخر عبر آلاف السنين ورغم انتشار اليهود فى أنحاء الأرض من الحبشة إلى آلاسكا، ومن الهند إلى الأرجنتين ، وبالتجاهل الكامل للفروق الجسمانية الواضحة بين « الفلاشة » ذوى البشرة السوداء، ويهود بولندا شقر الوجوه ، أو بين يهود كاى فينج الصينيين ويهود اليمن ، وهذه الأسطورة تكذبها كل حقائق العلم ووقائع تاريخ اليهود نفسه .

١ ــ تغيير الدين : لقد تعرضت اليهودية كأى دين إلى ظاهرة تغيير دين مزدوجة ، فقد اعتنق كثير من اليهود الإسلام أو المسيحية . ومن



التاريخ يشهد . . .

المقطوع به أن يهود فلسطين الأصليين قد تحول عدد كبير منهم إلى المسيحية وعدد أكبر إلى الإسلام ، وفى أوربا كان اعتناق المسيحية ظاهرة عادية ومتكررة . وعلى العكس اعتنق كثير من غير العبرانيين الديانة اليهودية . وإذا تركنا جانباً الحالات الفردية ، نجد فى التاريخ شواهد على حالات جماعية من أقدمها تحول عدد كبير من عرب اليمن إلى اليهودية فى عهد ذى نواس (أوائل القرن السادس الميلادى) . ومنها تحول شعب الخزر إلى اليهودية فى القرن الثامن ، كما شهدت روسيا والمجر حالات تحول جماعى إلى اليهودية فى القرنين الخامس عشر والتاسع عشر .

٢ ــ التزاوج : تجيز الشريعة الموسوية لليهودى أن يتزوج من غير يهودية إذا اعتنقت الدين اليهودى . وقد كثرت حالات الزواج من هذا النوع منذ عصر السبى فى بابل ، ثم أثناء انتشار اليهود فى البلاد المختلفة عبر العصور .

٣ ــ الاختلاط بالشعوب الأخرى قبل ظهور الشريعة الموسوية ، فاليهود كانوا كثيرى الترحال بين أرض العراق وفلسطين ومصر . ولم تكن قد استقرت عندهم بعد فكرة الشعب المختار وما تمليه من تفضيل الزواج داخل القبيلة . والثابت أن العبرانيين كانوا خليطاً من الشعوب تمايز أقسامه المختلفة منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . والدليل على ذلك أن العبرانيين الذين نراهم على النقوش المصرية يختلفون عن العبرانيين الذين تصورهم الآثار البابلية المعاصرة .

وهكذا يقول رافاييل باتاى مدير « معهد هرتزل » بمدينة نيويورك بالحرف الواحد : « إن ما واصل إليه علم الأنثروبولوجيا الطبيعية يبين أنه بعكس المعتقد الشائع لا يوجد عنصر يهودى » ... وشهد شاهد من أهل الصهيونية !

ونحن فى الوطن العربى ألفنا أن ننظر إلى اليهودية كدين ، كأحد الأديان السماوية الكبرى التى يتمتع معتنقوها بوضع خاص فى دولة الإسلام . ولهذا يصعب علينا أن نتصور تميز اليهودى بشىء آخر غير الدين ، ولا نفهم كيف يتقبل الأوربى أو الأمريكى فكرة التمايز اليهودى . ولكن الأمور فى أوربا سارت على غير التسامح الدينى الذى عرفته بلادنا . فى نظر الكنيسة لم يكن اليهود مجرد « كفار » لا يؤمنون بالنصرانية ، بل كانوا يحملون مسئولية صلب السيد المسيح ، جريمة تلاحقهم جيلا بعد جيل . ومن ثم كان لابد من الامتناع عن الاختلاط بهم ، وعزلهم عن المجتمع ، وإلزامهم بالمعيشة وحدهم بعيداً عن بقية البشر . وكانت الكنيسة تحظر التعامل بالفائدة لأنه رباً . أما عند اليهود فالمحظور هو اقتضاء الفائدة من يهودى آخر فقط . وبالتالى اشتغل اليهود بعمليات الاقتراض ، وأصبحت صورة اليهودى حتى فى عصر النهضة هى تلك التى خلدها شكسبير فى « تاجر البندقية » . وقد أدى كل هذا إلى الإبقاء على عناصر تمايز لدى الأقليات اليهودية استمرت أمداً طويلا . وقد نجحت الثورة البورجوازية فى تصفية هذا الوضع إلى حد بعيد فى أوربا الغربية . وقد كان من أبرز تشريعات حكومة الثورة فى فرنسا منح اليهود كل حقوق المواطن الفرنسى . ولكن تخلف الثورة فى أوربا الشرقية ، حيث تجمع تاريخياً العدد الأكبر من يهود أوربا ، حال دون تحقيق مثل هذا الاندماج . ولذلك تأكد التمايز اليهودى . وتكونت تجمعات كبيرة نشأت لها لغة خاصة هى اليديش وتكونت لها تقاليد ثقافية متميزة . وإزاء أوضاع التخلف الاقتصادى والاستبداد السياسى كانت تلك البلدان تموج بالتيارات الثورية ، ابتداء من المثقفين الليبراليين والعناصر الرأسمالية التى كانت تطمع فى استكمال الثورة البورجوازية إلى الطبقة العاملة والمثقفين الثوريين الذين بدأت تنتشر بينهم أفكار

الاشتراكية . وفى البداية كانت الدعوة السائدة لدى كل هذه التيارات التقدمية هى أن الاندماج والمساواة الكاملة هى طريق حل المشكلة اليهودية . غير أن الدعوة الصهيونية ولدت بالذات فى تلك الفترة وناضلت بكل ما تملك من قوى ضد الاندماج . وكان شعار الاندماج أكثر رواجاً بين الرأسماليين اليهود الذين كانوا يرون فيه الوسيلة لإسقاط الحواجز القانونية التى تحول بينهم وبين التمتع بكل ما تضفيه عليهم الثروة من مزايا . أما فى الطبقات الشعبية فقد كان عبء القهر والاستغلال مضاعفاً ، شأن كل أقلية فى مجتمع استغلالى . ولهذا لاقت فيها أفكار الصهيونية رواجاً .

ووجدت الصهيونية كل تأييد من حكام روسيا القيصرية العنصريين المعادين للسامية الذين كانوا يقاومون بدورهم فكرة الاندماج . وتولى عدد كبير من اليهود إحداث انقسام فى الحركة العمالية فى روسيا القيصرية وأنشئوا تنظيماً خاصاً بهم اسمه « البوند » (أى الرابطة) له أيديولوجية هى خليط من الأفكار الصهيونية عن تمايز اليهود ، وبعض أفكار الاشتراكية الخيالية . وكان يمكن أن يؤدى انتصار الثورة فى روسيا القيصرية إلى تصفية هذا الوضع الشاذ . وبالفعل ألغت حكومة الثورة كل القيود التى كانت مفروضة على اليهود . وفضلا عن ذلك أخذت الحكومة بعين الاعتبار وجود عدد ضخم من اليهود الذين ألفوا أن يعيشوا معاً والذين يتكلمون « اليديش » فأتاحت لهم فرصة تكوين إقليم مستقل استقلالا ذاتياً . ولكن تجربة إقليم بيروبيجان هذه أخفقت وفضل العدد الأكبر من اليهود الاندماج فى حياة الشعوب السوفييتية المختلفة . وعلى أية حال هبت الصهيونية تقاوم ما تعتبره أعظم نيل من عقيدتها وهو الاندماج والمساواة . وهاجمت الاتحاد السوفييتى . وغادر قادة « البوند » وكادرها الأساسى أرض الثورة إلى العالم الغربى . وكان منهم وايزمان وبن جوريون ووشى شاريت وجولدا مائير . . . كما استفادت الصهيونية من انتصار الثورة

المضادة فى الدول المجاورة للاتحاد السوفييتى وظهور الاتجاهات العنصرية الفاشية لتأكيد الدعوة إلى الهجرة إلى فلسطين . ثم كان ظهور النازية فى ركب من الجرائم البربرية التى ذهب ضحيتها مئات الألوف من اليهود مما أعاد طرح المشكلة اليهودية على الضمير الأوربى ، وفى أعنف صورة مأسوية . وهذا ما يفسر عطف عدد كبير من الناس الشرفاء فى أوربا على رغبة اليهود فى أن يكون لهم موطن يلجأ إليه من يحس منهم بأنه لا يستطيع الاندماج فى الوطن الذى يعيش فيه . والحركة الصهيونية تستخدم المنطق العنصرى كاملا فى تعبئة اليهود « المشتتين » حول فكرة دولتها فى إسرائيل . ولكنها لا تلح بالفكر العنصرى على الرأى العام الأوربى ، بل تقنع باستغلال العطف على اليهود بسبب ما عانوه على يد النازية وترتب عليه ضرورة دعم جهودهم فى إنشاء دولة لهم . وكثيراً ما ينزلق الناس الشرفاء تحت تأثير أجهزة الإعلام والنشر التى للصهيونية فيها نفوذ واسع فينسون الفكر العنصرى الذى يستتر وراء تلك الدعوة ، ويتناسون أن دولة الصهيونية لا تنشأ فى أرض خلاء ، وإنما على أرض شعب يسلب منه وطنه باسم رفع الظلم !

هل هناك قومية يهودية ؟

وحين تخشى الصهيونية ما تثيره النعرات العنصرية من ردود فعل مضادة فى الرأى العام تحاول الاستناد إلى مبدأ القوميات وتدعى أن اليهود يشكلون قومية متميزة، وهكذا أطلق الصهاينة على مشروعهم الأول اسم « الوطن القومى لليهود » . وتحمل إحدى المؤسسات الصهيونية العالمية اسم « الصندوق القومى لليهود » . ويتحدث كتاب الصهيونية عن « الشعب اليهودى » .

وهذه الدعوى القومية لا تستند إلى أى أساس . فماذا يربط بين اليهود

فى مختلف بلاد الأرض ؟ نحن نقول إنه لا يربط بينهم إلا مجموعة من المعتقدات الدينية . ولكن الصهيونية ترفض هذا المنطق السليم لأنه يجعل من اليهودية ديناً فحسب . ومع ذلك فهى تعجز عن تقديم أى سمة أخرى مشتركة بين اليهود. فهم لا يعيشون على أرض واحدة بل انتشروا فى ربوع المعمورة منذ أقدم العصور . وهم لا يتكلمون لغة واحدة ، بل إنهم فى كل البلدان يتكلمون لغة البلد الذى يعيشون فيه باستثناء فريق من يهود شرقى أوربا الذين كانت لهم لغة متميزة هى اليديش ، ازدهرت وكانت لغة أدب وثقافة . وذلك بعكس اللادينو لغة اليهود السفاراد التى اضمحل شأنها بالتدريج . أما العبرية فكانت لغة ميتة منذ ألفى عام إلى أن عملت الصهيونية على إحيائها فى إسرائيل . وحيث لا توجد لغة مشتركة يستحيل وجود تراث حضارى مشترك . وأى مشاركة حضارية يمكن أن توجد بين يهود نيويورك ويهود اليمن قبل هجرتهم إلى إسرائيل ؟ إن التفاوت الحضارى ما زال ملموساً داخل إسرائيل نفسها كما هو معروف . أما السمات الجسمانية فقد سبق أن أوضحنا أنها منعدمة أصلا ، فضلا عن عدم أهميتها فى تحديد محتوى القومية . فماذا يبقى بعد ذلك ؟ ليس هناك إلا الشعور بالتضامن الذى خلفته ذكريات الاضطهاد خلال قرون متعاقبة . وهذا الشعور بالاضطهاد يتلاشى بمرور الزمن وبنجاح اليهود فى الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وهكذا تنتهى دعوى القومية اليهودية إلى الأساس العنصرى مرة أخرى . إذ لا بد أن تقول الصهيونية إن اليهود شعب واحد وقومية واحدة لأنهم ينحدرون تاريخياً من أصل واحد ، وإن دم يعقوب يجرى فى عروقهم جميعاً ! . . والحقيقة هى أنه فى كل البلاد التى ساوت بين اليهود وغيرهم من المواطنين لم تعد هناك فروق ولا حواجز ، وأصبح اليهود فكراً وحضارة جزءاً من الأوطان التى تفتحت لهم . أما تجمعات اليهود فى شرقى أوربا التى كان لها وضع

متميز ولغة خاصة ، فإنه كان من المتصور نظرياً أن تكوّن قومية متميزة ضمن القوميات الكثيرة التى تحفل بها المنطقة ، لا يربطها ببقية اليهود إلا الدين ، باعتبار أن الشريعة الموسوية كالمسيحية أو الإسلام دين عالمى تتبناه شعوب تنتمى لقوميات مختلفة . ولكن الصهيونية العالمية حاربت فى غير هوادة لتقضى على هذه الظاهرة ، وكافحت لتقتل لغة حية هى اليديش وتحيي لغة ميتة هى العبرية ، وصرفت أنظار يهود شرقى أوربا عن مستقبلهم فيها لتربطهم « بأرض الميعاد » . وكان ذلك ضرورة لها ، لأن هؤلاء اليهود وحدهم كان يمكن التعويل عليهم فى الهجرة بعكس يهود غربى أوربا الذين يفضلون دائماً أوطانهم الحالية . وعلى أية حال يبدو أن فكرة القومية اليديش ضربت فى أساسها ، بدليل إخفاق تجربة إقليم بيروبيجان فى الاتحاد السوفييتى وترك اليهود له .

على أن لدعوى القومية اليهودية جانباً آخر بالغ الخطورة . فالتسليم بها يؤدى إلى اعتبار اليهود فى كل بلد « أقلية قومية » ، فيهود فرنسا بهذا المنطق ليسوا فرنسيين وإنما يهود فرضت عليهم فرنسا الجنسية الفرنسية وحرمتهم من ثقافتهم القومية ولغتهم الخاصة . . ! ويهود الولايات المتحدة الذين يؤثرون بأصواتهم ونفوذهم فى سياسة واشنطون ليسوا مواطنين أمريكيين ، وإنما هم أقلية أجنبية . ويهود الاتحاد السوفييتى ليسوا من أبناء الوطن الاشتراكى وإنما غرباء دخلاء تمنعهم السلطة السوفييتية من « العودة » إلى وطنهم إسرائيل . . . إلخ . ويمكن أن يرتب البعض على هذا المنطق شرعية التمييز ضد اليهود وإبعادهم عن المواقع الحساسة فى الدولة والاقتصاد أو الجيش ، ما داموا أجانب وليسوا مواطنين . إن الصهيونية بما تروجه من أفكار وما تمارسه من تأثير على اليهود قد أثارت بالفعل ، ولا سيما بعد حرب يونية ، قضية « الولاء المزدوج » لليهودى ، وانتمائه إلى وطنين ، ومدى الاطمئنان إلى موقفه إذا اصطدمت مصالح البلد الذى يحمل جنسيته مع

مصالح إسرائيل(١) . إن الصهيونية تبعث الحياة من جديد فيما اصطلح على تسميته « معاداة السامية » . وليس هذا غريباً ، فالصهيونية عرفت أزهى عصور نجاحها فى الفترات التى اشتدت فيها سياسة اضطهاد اليهود ، وبالذات فى نهاية القرن الماضى فى روسيا القيصرية ، ثم فى ظل النازية . إنها كحركة عنصرية تتغذى من كل الحركات العنصرية الأخرى ولا سيما إذا كانت معادية لها .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأساس العنصرى فى يد الصهيونية سلاح هام وفعال لتعبئة اليهود فى كل مكان لمساندة إسرائيل . وهى تستخدمه فى كل المستويات ابتداء من التعصب العنصرى عند بعض هؤلاء اليهود ، إلى مجرد التعاطف الطبيعى الذى يحس به عدد كبير منهم باسم الانتماء التاريخى ، أو ذكريات الاضطهاد ، أو التماسك الدينى ، أو حتى العطف على من يعتقد المرء أنهم ضحية اضطهاد أو عدوان . . والأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن الأذهان هو أن قدرة الصهيونية على تعبئة يهود العالم ترتهن بإشاعة الإحساس بأن يهود إسرائيل فى خطر . ومن ثم كانت حرب يونيه فرصة ضخمة لاستنزاف اليهود لصالح الدولة الصهيونية . ومن ناحية أخرى لا تتورع التنظيمات الصهيونية عن الالتجاء إلى أشكال ابتزاز سافر وفرض التبرعات فرضاً كإتاوة يدفعها اليهودى رضى أم كره . وقد استخدمت فى هذا السبيل وسائل العصابات الإجرامية من التهديد بالمقاطعة الاقتصادية ،

---

(١) وقد اتضح هذا فى بولندا حين اتخذت حكومتها موقفاً يتسق مع المبادئ الاشتراكية ومع مصالح بولندا القومية فى النضال ضد الإمبريالية ، فعارضه يهود فى أعلى مستويات المسئولية فى الجيش وفى وزارة الخارجية واحتفلوا بانتصار إسرائيل . كما اتضح أيضاً فى فرنسا حيث انقلبت الصهيونية فجأة من تأييد حكم ديجول إلى معارضته معارضة شديدة ، وحين كان المتظاهرون من اليهود الفرنسيين يهتفون « فرنسا معنا » أى مع إسرائيل .

وبإتلاف المتاجر . . . إلخ . ومن ثم فإن اليهود الذين يعارضون الصهيونية يواجهون مصاعب جمة فى حياتهم الاقتصادية والمهنية ويتعرضون للتهديد والإدانة ، مما يؤكد شجاعتهم الأدبية التى تستحق التقدير . ويبقى بعد ذلك أن تأييد « الدياسبورا » — أو اليهود المشتتين بلغة الصهاينة — عنصر أساسى فى دعم إسرائيل يأتى مباشرة بعد التأييد الاستعمارى من حيث درجة الأهمية .

والقومية الإسرائيلية ؟

يقول بعض المثقفين المتزنين فى كثير من البلدان إنهم لا يقرون النظرة العنصرية التى تدعو لها الصهيونية ، كما أنهم لا يعتقدون أن ثمة قومية يهودية . ولكنهم ، على العكس ، يؤكدون أنه قد تكونت فى إسرائيل خلال العشرين عاماً التى عاشتها قومية إسرائيلية متميزة حتى عن بقية يهود العالم . ويدللون على ذلك بأن نسبة لا يستهان بها من الإسرائيليين قد ولدوا فى أرض فلسطين ولم يعرفوا لأنفسهم وطناً آخر ، وهم الذين يسمون « السابرا » . وهؤلاء تعلموا العبرية منذ طفولتهم فأصبحت لغتهم الأصلية ، وليس لغة إضافية يتحدثها المرء لقضاء الأعمال فى حين يتكلم فى بيته الفرنسية أو الإنجليزية أو البولندية . . . إلخ كما هى الحال فى أوساط المهاجرين . كما أن مصالح إسرائيل كشعب وكدولة أصبحت تتميز عن مصالح الحركة الصهيونية العالمية واتجاهاتها . وقد شهدت المؤتمرات الصهيونية العالمية فى السنوات الأخيرة صراعاً حاداً بين القادة الإسرائيليين من أمثال بن جوريون وبين قادة المنظمة الصهيونية العالمية من أمثال جولدمان . وهذا الصراع فى نظر أولئك المثقفين يعبر عن التناقض فى المصالح وفى الفكر . وأخيراً يقول بعضهم إن استماتة الإسرائيليين فى القتال ، بعكس حال الجنود الأمريكيين فى فيتنام ، تعبير عن إحساسهم

بالارتباط الوثيق بالأرض وإدراكهم أنها وطنهم الوحيد .

ولكن هذا الاستدلال لا يصمد طويلا أمام المناقشة الواقعية . فعنصر الزمن فى ذاته لا يكفى لتكوين أمة متميزة . لقد عاشت أسر فرنسية فى الجزائر ثلاثة أو أربعة أجيال . وفكر المستوطنون الفرنسيون هناك غداة الحرب العالمية الثانية فى الانفصال عن فرنسا خوفاً من انتصار القوى التقدمية فيها واشتراكها فى الحكم — تماماً كما تستقل اليوم روديسيا عن بريطانيا . وظن بعض كبار رجال السياسة التقدميين فى فرنسا قبل ثلاثين عاماً أن واقع الجزائر يبشر بتكوين أمة جديدة هى خليط من العناصر الأوربية الأصل والعناصر الجزائرية الأصلية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . لقد ظل المستوطنون مجموعة متميزة بعيدة عن الشعب الجزائرى لغة وحضارة وفكراً ، تتعلق بتفوقها السياسى والاقتصادى وبسلطة الاستعمار ، ولا تتصور لنفسها وضعاً فى البلاد غير وضع السيد . ومن المعروف أن اتفاقية إيفيان سنة ١٩٦١ بين فرنسا وحكومة الجزائر المؤقتة منحت المستوطنين حق الاختيار بين حلول ثلاثة : الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية ، أو اكتساب الجنسية الجزائرية بقوة القانون ، أو الجمع بين الجنسيتين لمدة ثلاث سنوات يكون بعدها الاختيار . ولكن المستوطنين غادروا الجزائر جميعاً . ولم يكن ذلك لعدم ارتباطهم بالأرض ؛ على العكس فقد بلغ من حرصهم على البقاء فيها أن أعلنوا التمرد على حكومة باريس وحاولوا قلبها ، ونظموا لأنفسهم قوة مسلحة خاصة بهم هى « الجيش السرى » ، وإنما لأن ذلك الارتباط يقترن عندهم بالسيادة والسيطرة . فعنصر الزمن فى ذاته لا يكفى لتكوين أمة ، كما أن التمسك بالسيطرة على أرض ما ليس دائماً تعبيراً عن شعور وطنى .

وفى داخل إسرائيل يوجد انقسام حضارى خطير بين اليهود الأوربيين واليهود الشرقيين ، أو كما يقولون بين « الإشكناز » و « السفاراد » .

وليس من شأننا الخوض فى تحليل تلك الظاهرة . ولكننا نريد فقط التنبيه إلى أنها ليست مبنية على خلاف بين مذاهب دينية ؛ إنها أقرب إلى الصراع العنصرى ، وجوهرها هو إحساس « الإشكناز » بتفوقهم على « السفاراد » واعتزازهم بهذا التفوق واستهانتهم ببنى دينهم من اليهود الشرقيين وحرصهم على الإبقاء على هيمنتهم على الدولة والاقتصاد والجيش . فنحن هنا نلمس قلب الظاهرة الإسرائيلية : إنها مشروع استيطان أوربى مبنى على الإيمان بتفوق الحضارة الغربية وما يضفيه ذلك التفوق على الأوربى من حق فى انتزاع أرض الآخرين وتشكيل مصيرهم وفقاً لإرادته واستغلالهم اقتصادياً وقهرهم سياسياً وثقافياً باسم نشر المدنية وتحقيق التقدم . إنها نفس عقلية غلاة المتعصبين من البيض فى الولايات المتحدة الأمريكية الذين يؤمنون بحق « البيض الأنجلوسكون البروتستانت » فى السيادة والسيطرة والذين يرون فى البيض الكاثوليك أو الأرثوذكس القادمين من إيطاليا أو إسبانيا أو اليونان أو أرمينيا مجرد قوة عاملة لابد منها لتعمير الأرض الشاسعة وتشغيل المصانع الكبيرة ، ليس لها من أفضلية إلا على العنصر الأفريقى الأصل . ولا شك أن هذا الانقسام الحضارى الخطير يقف عقبة فى سبيل انصهار يهود إسرائيل فى وحدة قومية واحدة . ولكنه ليس الانقسام الوحيد . فالمهاجرون ما زالت لهم ارتباطات ثقافية متميزة بحسب الوطن الذى هاجروا منه . وما زالت البيوت فى إسرائيل تتحدث معظم لغات العالم ، وكأن هذا البلد الصغير برج بابل .

غير أن العقبة الرئيسية فى سبيل تكوين أمة متميزة فى إسرائيل هى الرابطة الصهيونية . فإسرائيل لا يمكن أن تصبح أمة إلا إذا تخلت نهائياً عن اعتبار نفسها وطناً لكل يهود العالم . إن فكرة القومية الإسرائيلية تنفى بالضرورة للقومية اليهودية . وهى لا يمكن أن تتبلور وتتأكد إلا فى الحدود التى تضمحل فيها وتتلاشى فكرة أن اليهود فى العالم كله شعب واحد .

إن إصرار الإسرائيليين على البقاء جزءاً من كل مشتت يقتل عناصر التميز ويحول دون إبراز شخصية قومية لهم . والواقع أنهم لا يعتبرون أنفسهم أمة متميزة ، ولا يفكرون بهذه العقلية . ومن المسلم به أن من عناصر القومية هذا الإحساس العميق بالشخصية المستقلة .

وأبلغ شاهد على ذلك هو « قانون العودة » . واسمه فى ذاته بالغ الدلالة . فاليهودى الذى يفد إلى إسرائيل ليس مهاجراً من وطنه ووطن أجداده ، وإنما عائد إلى وطنه الأصيل . وحقه فى هذه العودة غير مشروط ، إنه لصيق بصفته كيهودى ، ويجد سنده الشرعى فى « التوراة » قبل أن يجده فى قوانين إسرائيل . ولذلك فإن نصوص قانون العودة تبدو فريدة لا نظير لها فى العالم . فوفقاً لها يكفى أن يحضر اليهودى إلى إسرائيل بغية الإقامة ليكتسب الجنسية الإسرائيلية ، حتى دون أن يقدم طلباً بذلك . إن قانون العودة يعتبر أن اليهودى فى هذه الحالة يسترد جنسيته الأصلية ، ولا يعده راغباً فى التجنس بجنسية جديدة . فكيف تكتمل معالم الأمة ومكوناتها غير قابلة للتحديد بل خاضعة للتغيير المستمر وفقاً للهجرة من إسرائيل وإليها .

وهكذا تكون الأيديولوجية الصهيونية حائلا دون نمو قومية مستقلة فى إسرائيل بإصرارها العنصرى من ناحية على وحدة اليهود فى العالم ، وبرفضها من ناحية أخرى أن تنفصم إسرائيل عن الغرب لتصبح جزءاً من المنطقة المحيطة بها . ولا يمكن لأحد أن يفترض فى إسرائيل ما يرفضه الإسرائيليون أنفسهم ؛ ولا يجوز أن يحدثنا أحد عن أمة إسرائيلية ، فى حين أن أصحاب الشأن يصرحون ألا أمة إسرائيلية وإنما شعب يهودى .

استغلال الدين

وإلى جانب العنصرية تستغل إسرائيل الدين أسوأ استغلال . ويبدأ

ذلك بمحاولة تأسيس الدعوة لإنشاء إسرائيل ، ثم لتبرير وجودها بالحديث عن « الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بأرض كنعان » . فالعقل لا يمكن أن يقبل الاستناد فى احتلال أرض فلسطين إلى واقع أن دولة يهودية كانت قائمة فى جزء منها قبل ألفى عام . ولو أخذنا بمثل هذه الحجج لوجب رد الولايات المتحدة لقبائل الهنود الحمر . فالتاريخ هنا عمره لا يزيد على خمسة قرون . والأمر الغريب حقاً هو أن عدداً من المثقفين الأوربيين المتعاطفين مع إسرائيل لا تصطدمهم عدم استقامة المنطق ، ويتقبلون فى سهولة استخدام حجتين متناقضتين . فهم يقيمون وزناً كبيراً للعشرين عاماً التى مضت على قيام إسرائيل ويهدرون الألفى عام التى عاشها العرب على أرض فلسطين . أو بصورة أخرى يقبلون الزعم الصهيونى عن حقهم فى أرض فلسطين باسم مملكة زالت منذ أكثر من ألفى عام ، ويرفضون حق العرب الذين طردوا من أرضهم منذ عشرين عاماً فقط . ولا يمكن لأى إنسان يحترم عقله أن يستفيض فى مناقشة لأسطورة يراد لها أن تكون سنداً لاغتصاب . . ويكفى هنا أن نشير إلى بعض الحقائق البارزة فى التاريخ . فالنصوص التى يستند إليها الصهاينة من الكتاب المقدس واضحة فى أن الأرض فى الأصل أرض الكنعانيين . ومن ناحية أخرى ، كان هناك شعب يسكن القسم الغربى من فلسطين هو الذى أعطى للأرض المقدسة اسمها التاريخى « فلسطين » يغلب أنه من أصل فينيقى ، ولم يتمكن اليهود من إبادته . وفى عهد أقرب إلينا ، دوّن التاريخ وقائعه ، وأعنى به القرون القليلة التى سبقت ظهور المسيح كان للعرب النبطيين مملكة قوية فى الجزء الجنوبى من فلسطين وفى شمال الحجاز . ثم كان أن هاجرت قبائل عربية إلى فلسطين حتى تم استعرابها قبل ظهور الإسلام ، وقامت فيها مملكة الغسانيين . فالزعم الصهيونى حتى لو سلمنا بحقيقته التاريخية لا يعدو أن يكون مطالبة بالأرض باسم حق الفتح الذى مارسته القبائل

العبرانية فى عصر سحيق من تاريخ فلسطين . . .

على أن دعوى الصهيونية أصابت تاريخياً وتراً حساساً لدى أكثر جماهير اليهود تخلفاً . لقد تعلمت تلك الجماهير عن طريق رجال الدين جيلا بعد جيل لعدة قرون أن شعب الله المختار قد أغضب الرب . ولهذا دمر « يهو » ملك إسرائيل وشتت اليهود وفرض عليهم صنوف العذاب والتنكيل . وكان من أثر هذه التعاليم أن اعتبر كثير من اليهود المتدينين ما يحل بهم من الاضطهاد وعداً مكتوباً للتكفير عن ذنوب الآباء . ولكن غضب « يهو » لم يبلغ حد نقض الوعد الذى قطعه على نفسه ليعقوب . بل إن نسل يعقوب يبقى الشعب المفضل عند الرب ، ولآلام اليهود نهاية هى الخلاص الذى يتمثل فى ظهور مخلص من نسل داود النبى الملك ، يكون مثله نبياً لبنى إسرائيل ، ومجدداً لملك العبرانيين . لقد كذب يهود فلسطين قبل ألفى عام المسيح وحاربوه . وصهاينة اليوم يسمون بن جوريون « النبى المسلح » . . ! إن الحركة الصهيونية تستغل تلك الشحنة العاطفية التى تراكمت عبر القرون وتخلع على قادتها مسوح الأنبياء المقاتلين . ولكن الخدعة تصبح بشعة مفضوحة حين يتضح أن عدداً من هؤلاء « المتنبئين » لا دينيون لا يؤمنون بشىء مما جاء بالتوراة ، وإنما يستغلون العاطفة الدينية لتحقيق أغراض استعمارية دنيوية خالصة شأنهم شأن كل المستعمرين . ولهذا ليس غريباً أن نرى طائفة كبيرة من اليهود تعارض دولة اسرائيل على أسس دينية ، لأنها لا ترى فيها تلك السمات التى نصت عليها التوراة . . . ومع ذلك ، فإن قادة إسرائيل جعلوا منها دولة « ثيوقراطية » فريدة فى القرن العشرين . فأولئك الذين يخاطبون الرأى العام الأوربى قائلين إنهم حملة التقدم فى منطقة ما زالت تعانى تخلف العصور الوسطى ، يقيمون دولة تجعل من الدين أساساً لصفة المواطن فيها ، وتعجز حتى اليوم عن أن تصوغ لنفسها دستوراً لأن أصحاب

النفوذ فيها يرون فى كتب السلف الدستور الوحيد المشروع . وحين يثور الخلاف حول اختيار جولدا مائير رئيسة للوزراء يعترض الحزب الدينى لأن الكتب المقدسة لم تذكر لإسرائيل ملكة ، وأن ملوك إسرائيل يجب أن يكونوا من الذكور . . !

ولا يقف استغلال الدين عند هذا الحد . فالصهيونيون المتعصبون يستخرجون من نصوص التوراة التى بيدهم ما يبررون به جرائمهم :

فإقامة الدولة الصهيونية على أرض الغير ، وانتزاعها من أصحابها . ليس أمراً مشروعاً فحسب بل إنه استجابه لمشيئة الرب . لقد وعد « يهو » بنى إسرائيل بأرض كنعان ، أى بأرض مملوكة لغيرهم ، وقادهم :

« إلى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم وزيتون لم تغرسها ، وأكلت وشبعت »

(العهد القديم ، سفر التثنية ، إصحاح ٦ الآية ١١)

وحين يطردون العرب من أرضهم ، يعتبرون هذا تكليفاً دينياً فرضه عليهم « يهو » كما جاء فى سفر « الخروج » من العهد القديم :

« فإنى أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك . لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً . لا يسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطئ »

(سفر الخروج : إصحاح ٢٣ ، الآية ٢٢ و ٢٣)

فبقاء العرب فى أرض سيطرت عليها إسرائيل خطيئة ، والواجب الدينى فى نظر الصهاينة هو طردهم والاستيلاء على ممتلكاتهم .

أما المطامع التوسعية ، فسندها عندهم وارد فى التوراة ، وعداً من الرب :

« لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»

(سفر التكوين : إصحاح ١٥ ، الآية ١٨)

فهل بعد ذلك من تفسير لحرص الصهاينة على عدم تحديد حدود نهائية لإسرائيل قبل بلوغ تلك الحدود الإلهية ، التى بلغ بهم التبجح أن صاغوها على جدران الكنيست هدفاً معلناً يلتزم به حكام إسرائيل ؟ ألم ير الإسرائيليون فى انتصار يونية سنة ١٩٦٧ تنفيذاً لوعود الرب ، واحتشدت جموعهم فى بيت المقدس تمجد « يهو رب الجنود » ؟

على أن استغلال الدين لا يقتصر على التأثير على جماهير اليهود ، وإنما يمتد على يد الصهاينة إلى بعض المسيحيين . فمن المعروف أن المذهب البروتستانتى قد تميز بالدعوة إلى دراسة العهد القديم ، وتمثل أحكامه والتأثر بها . ومن ثم تستغل الصهيونية هذه الأوضاع فى استدرار عطف البروتستانت على إسرائيل باعتبار أن قيامها وإعادة بناء « الهيكل » بشير بظهور السيد المسيح من جديد . وقد نجحت بالفعل فى زيادة العطف على إسرائيل فى بريطانيا وأمريكا ، كما أن مراجعة موقف الفاتيكان من مسئولية اليهود عن صلب المسيح تدخل فى إطار التقريب من المذاهب المسيحية ، فضلا عن التأثير المباشر للصهيونية على الكنيسة الكاثوليكية نفسها . وإن كان ذلك لم يمنع إسرائيل من اضطهاد العرب المسيحيين ومن تدنيس الأماكن المقدسة المسيحية فى استهتار جامح بكل المقدسات .

التفوق الأوربى

وأخيراً تستخدم الصهيونية السلاح الأيديولوجى التقليدى للاستعمار ألا وهو « التفوق الأوربى » . لقد آمنت أوربا وأمريكا الشمالية لعشرات السنين بأنها موطن المدنية ، وأنها أرقى شعوب العالم ، وأن رسالتها التاريخية هى تحضير البشرية . وما زالت فى الغرب دوائر ترى فى تحرير السود والصفر وزيادة عددهم خطراً داهماً يهدد المدنية الأوربية وحضارة الإنسان كلها . ويقدم الصهاينة إسرائيل للغرب على أنها جزء منه ، تتجسد فيها

حضارته فى مواجهة العرب . ولهذا نجد القوى اليمينية المتطرفة وأصحاب الاتجاهات الفاشية والعنصرية فى أوربا وأمريكا تتبنى قضية إسرائيل ، وتقف إلى جوارها ضد العرب . بل إننا نجد النازيين السابقين والجدد يتفانون فى خدمة إسرائيل ومعاونتها والتجسس لحسابها ، لا تكفيراً عن الجرم أو شعوراً بعقدة الذنب كما يقال فى ألمانيا الغربية ، وإنما استمراراً فى الموقف العنصرى الأصيل . لقد قالت النازية إن اليهود جرثومة تهدد الحضارة الأوربية لأنهم ليسوا أوربيين ، بل ساميون أى شرقيون . وهجرتهم إلى إسرائيل هى بالتالى استجابة لمنطق النازية العنصرى . ومعاونة النازيين لهم تأكيد لتخليص أوربا منهم واستخدام لهم فى مواجهة هبة الشرق العربى التحررية . إن العنصريين يلتقون دائماً . وحكام روسيا القيصرية قد أيدوا هرتزل والدعوة الصهيونية . وكبار القادة الصهيونيين كانوا على صلة بهتلر وطغمته . وفيما وراء الدوائر المتعصبة والرجعية ، نجد إسرائيل دائرة واسعة من العطف بين فئات كثيرة ليست بالضرورة ذات موقف رجعى فى بلادها ، ولكنها قد ترسب فى ضميرها تفوق الغرب وتشجيع كل ما هو أوربى[1] . والواقع أن مصاير إسرائيل بيد يهود أوربيين هم أوربيون قبل كل شىء ، يقيمون بالفعل دولة مصطنعة هى امتداد لأوربا فى قلب الوطن العربى . وهذا ما يلقى الضوء على رفض هؤلاء أن « يعيشوا كجزء من أهل المنطقة » كما يحلم بعض مثقفى اليسار الأوربى . إنهم مستوطنون أوربيون لهم عقلية المستوطن التى لا تتصور العلاقة بأهل البلد الأصليين إلا فى صورة قهر وطرد وإبادة أو سيطرة واستغلال . وتلتقى عند هؤلاء اليهود الأوربيين بالذات مجموعة من العقد النفسية والمعتقدات الخاطئة . فهم باعتبارهم أوربيين يؤمنون إيماناً عميقاً بتفوقهم

(١) لقد أجرت إحدى هيئات قياس الرأى العام استفتاء فى فرنسا فى نوفمبر ١٩٦٧ اتضح منه أن غالبية الفرنسيين يعتبرون بالفعل إسرائيل دولة غربية .

الأصيل ، لا على العرب وحدهم بل على اليهود الشرقيين . ويثقون ثقة لا حد لها بتقدمهم التكنولوجى ومعارفهم العلمية . وهم كيهود عانوا من الاستهانة بشأنهم فى أوربا حريصون على أن يثبتوا للأوربيين امتيازهم ليس فى العلم أو فى جمع المال فحسب وإنما أيضاً فى المجال العسكرى وفى سياسة الفتح وقهر الشعوب والسيطرة عليها التى كانت عماد الإمبراطوريات الأوربية (١) .

(١) وغداة حرب يونية كتب مثقف يهودى فرنسى كبير فى جريدة « لوموند » الجادة يمجد انتصار إسرائيل ، ويقول ها هم أولئك الذين قال عنهم النازيون إنهم « أشباه رجال » ينتصرون نصراً لم يسبق له مثيل فى حرب كانت نسبتهم العدديةفيها إلى أعدائهم أقل من واحد إلى عشرين .

فهذا المثقف الذى يؤيد عادة الدعوة إلى السلام ويدين الحرب ويقول بالمساواة بين الشعوب ينفعل فيسلم بالتفوق العنصرى ويجعل الانتصار فى الحرب أكبر دليل عليه . . . !

٤

دور إسرائيل فى خطط الاستعمار

قامت إسرائيل فى قلب الوطن العربى كخنجر غرسته يد الصهيونية والاستعمار . وحرصت الصهيونية ، بطبيعتها وبمصلحتها ، على أن تؤكد دائماً أن إسرائيل رأس جسر للغرب ، إنها جزء منه فيما وراء البحر الأبيض المتوسط . فمنذ البداية قال هرتزل : « إن دولة اليهود ستكون حصناً أمامياً للحضارة الأوربية ضد الهمجية الشرقية » . ومنذ نشأة الدولة الصهيونية وحكامها يقدمون الدليل تلو الدليل على ولائهم لسياسة مؤسسى الحركة الصهيونية . ولكن ما هو موقف الإمبريالية العالمية من إسرائيل ؟ إنه من نافلة القول ذكر ما قدمته الدول الإمبريالية لإسرائيل من مساعدات . ولكن السؤال الذى نثيره هل كانت تلك المساعدات ظاهرة عارضة ، أو سلسلة من الظواهر العارضة ، أملتها فى كل مرة ظروف محددة ، واعتبارات تكتيكية ؟ أم أنه على العكس تشكل تلك المساندة جزءاً جوهرياً من استراتيجية الاستعمار فى الوطن العربى ؟

الواقع أن المخطط الاستعمارى يلتقى فى خطوطه الرئيسية مع المخطط الصهيونى بحيث إنهما يتحركان جوهرياً فى نفس الاتجاه وبغض النظر عن الخلافات الجزئية . وإدراك هذه الحقيقة إدراكاً عميقاً أمر حيوى لوضع استراتيجية سليمة فى النضال ضد إسرائيل . إن موقف الاستعمار من إسرائيل ليس مجرد مصادفة ، ولا هو نابع من العطف على اليهود بعد طول اضطهاد . فالسياسة الدولية لا تحكمها العواطف ولا تسيرها مصادفات ، وإنما هى فى التحليل الأخير تعبير عن مصالح محددة .

وإنه لمن السذاجة بمكان أن نتوهم أن هذا الموقف من صنع الأقليات اليهودية فى الدول الاستعمارية . إننا تكلمنا طويلا عن أهمية دور « الدياسبورا » فى دعم إسرائيل . ولكن نفوذ اليهود لا يكفى لتفسير سياسة الدول الكبرى ، لقد قال ماكجورج باندى مستشار كيندى السابق ، ورئيس المكتب الذى شكله جونسون فى يونية ١٩٦٧ لمتابعة أحداث الشرق الأوسط ، بالحرف الواحد : « إن سياستنا فى تأييد إسرائيل تنبع من مصالحنا القومية ، وليست وليدة تأثير الأمريكيين ذوى الأصول اليهودية » . إن مبدأ مساندة إسرائيل إذاً مؤسس على مصالح الاستعمار ذاتها . أما نفوذ اليهود فإنه يلعب دوره فى حجم المساندة وأشكالها وفى تكييف الرأى العام عن طريق أجهزة الإعلام والنشر وفى تنظيم المساعدات غير الحكومية . . . إلخ .

وإن نظرة لصلة الاستعمار بالوطن العربى لتبرز على الفور الدور الذى تلعبه إسرائيل فى مخططاته .

إسرائيل تجسيد للوجود الاستعمارى

ويل للأمم التى لا تستفيد دروساً من تاريخها ! وإن لنا تاريخاً مع الاستعمار يجب أن نعرفه لا على مستوى الوقائع المتتابعة والأحداث المتعاقبة فحسب ، وإنما على مستوى المغزى العميق والدلالة البعيدة . ولنترك جانباً أول محاولة لأوربا الغربية للاستيلاء على الشرق العربى ، وهى الحروب الصليبية ، حتى لانغوص فى تاريخ بعيد نسبياً . ولنقصر الكلام على ما اصطلح على تسميته « التاريخ الحديث » . لقد حاولت أوربا غداة الثورة الفرنسية الكبرى الاستيلاء على الشرق العربى من جديد . وجاء نابليون إلى القاهرة ثم حاول احتلال فلسطين . واصطدمت المحاولة بمقاومة عنيفة من الشعب المصرى جعلت بقاء قوات الحملة الفرنسية

فى مصر جحيما متصلا . ثم اصطدمت بالصراع مع بريطانيا التى اتخذت عندئذ موقف مساندة السلطان العثمانى . وكانت الحملة الفرنسية حدثاً فريداً فى تاريخ الاستعمار . لقد فتحت أعين المصريين على التقدم الأوربى وقدمت لهم صوراً منه ، ولكنها لم تنجح فى إرساء حكم استعمارى يعطل أخذ المصريين بسبيل التقدم . ولهذا هب الشعب المصرى بقيادة محمد على فقضى على الإقطاع المملوكى وطور الزراعة وأنشأ الصناعات الحديثة ، وانفتح ثقافياً على أوربا عن طريق الخبراء والبعثات . وحين حاولت بريطانيا أن تحل محل فرنسا متعللة بتأييد بعض المماليك ضد محمد على هزمت حملتها فى رشيد هزيمة قضت على المحاولة فى مهدها . وكان يمكن لمصر أن تعرف تطوراً كالذى عرفته اليابان . ولكن الاستعمار الأوربى كان بالمرصاد . فتكاتفت دول أوربا ، على ما بينها من خلافات ، لتضرب الجيش المصرى . ونجحت بالفعل فى وقف التقدم . ولما تبين للشعب المصرى أن خلفاء محمد على لم يكونوا فى مستوى المسئولية ثار بقيادة واحد من أبنائه ، أحمد عرابى ، ليؤكد وضع مصر الخاص فى ظل الخلافة ، ويؤكد الديمقراطية والتطور . وكان أن تدخل الإنجليز واحتلوا مصر بحجة مساندة عرش الخديو . ولكنهم لم يجرؤوا على تحويلها إلى مستعمرة أو حتى فرض الحماية عليها ، وإنما أكدوا أن احتلالهم مؤقت هدفه تثبيت العرش وحماية مصالح الأجانب . وظلت بقية بلاد الشرق العربى بعيدة عن الاستعمار فيما عدا عدن وساحل الخليج العربى .

وكان على الاستعمار الأوربى أن يحسم خلافاته بصورة أو بأخرى ، وأن يصفى إمبراطورية آل عثمان لكى يحتل الشرق العربى. وقد تم ذلك فى إطار الحرب العالمية الأولى حين نجح التحالف البريطانى الفرنسى فى هزيمة ألمانيا والقضاء على « الدولة العلية » . ولكن احتلال الشرق العربى لم يكن قضية سهلة . فالثورة العربية تأججت خلال الحرب تحت شعار

إنشاء دولة عربية مستقلة . ومصر لم تقبل الحماية البريطانية التى فرضت عليها سنة ١٩١٤ وكانت تنتظر نهاية الحرب لتطالب باستقلالها كاملا فى وحدة مع السودان . كما أن الثورة الروسية اندلعت قبل نهاية الحرب : وظهرت فى عالم الوجود أول دولة اشتراكية تعلن حق الشعوب فى الحرية وتفضح المعاهدات السرية وتتنازل عما كانت تلك المعاهدات قد خصتها به من أسلاب . ولذلك عملت بريطانيا على الالتفاف حول القيادة الإقطاعية للثورة العربية والتظاهر بمساندتها . وفى الوقت الذى كان فيه ممثلها ما كماهون يبذل الوعود للشريف حسين وأولاده ، كانت حكومة لندن توقع مع فرنسا معاهدة سايكس — بيكو لاقتسام أرض الشام . وليس من قبيل المصادفة أن يعاصر صدور وعد بلفور المعاهدة المذكورة من ناحية والوعود المبذولة للشريف حسين من ناحية أخرى . إن الاستعمار البريطانى بالذات كان يدرك صعوبة الاستقرار فى الأرض العربية ، ويخشى الثورات المتصلة بها ، ولذلك تبنى المشروع الاستيطانى الصهيونى فى أرض فلسطين ليخلق كياناً أوربياً فى قلب الوطن العربى يكون وجوده فى الأجل القصير ركيزة تبرر البقاء البريطانى بحجة الصراع بين عرب فلسطين واليهود ، بعد أن أخفق الاستعمار فى الاستناد إلى العرب المسيحيين فى دعوى « حماية الأقليات » . إن بريطانيا منحت نفسها بوعد من أحد وزرائها لحاييم وايزمان حجة لاحتلال فلسطين تستخدم على حسب الأحوال ضد العرب الذين يريدون دولة عربية واحدة ، وضد الفرنسيين الطامعين فى أرض الشام . وبالفعل آلت فلسطين لبريطانيا فى حين نالت فرنسا سورية ولبنان . وتضمن صك الانتداب الذى أصدرته عصبة الأمم لبريطانيا على فلسطين تكليفها بتنفيذ وعد (بلفور) ، وبذلك أصبح بقاء الإنجليز ليس متوقفاً فقط على وصول الفلسطينيين إلى مستوى الاستقلال وإنما كذلك بتحقيق الوطن القومى لليهود . أما فى الأمد

الطويل فإن تطور الوجود الصهيونى يلقى عبئاً ضخماً على حركة التحرر العربية ويضمن بقاء الغرب الأوربى فى صورة رأس جسر ، حتى ولو أرغم البريطانيون على الانسحاب . وأيدت أحداث ما بعد الحرب هذا الاتجاه . فبريطانيا وفرنسا لم تنجحا فى تحويل الشرق العربى إلى مستعمرات وكان أقصى ما حصلتا عليه هو « انتداب » من عصبة الأمم ، من الفئة الأولى ، يلزمهما بمساعدة تلك الشعوب على حكم نفسها بنفسها حتى تصل إلى الاستقلال . ومع ذلك فقد اندلعت الثورة فى مصر وسورية وفلسطين والعراق . بل امتدت إلى المغرب العربى . وبخليط من إجراءات القمع والتنازلات نجحت الدولتان الاستعماريتان فى تثبيت سيطرتهما . ولكن الثلاثينات عرفت الهبات الوطنية من جديد فى العراق ومصر وسورية وفلسطين حيث وصلت الأمور إلى مستوى الكفاح المسلح . وهكذا كان طبيعياً أن تعمل بريطانيا ، وتؤيدها فرنسا ، وتباركها عصبة الأمم على تيسير هجرة اليهود إلى فلسطين ، وتعترف بالوكالة اليهودية ممثلا لهم ، وتترك لهم فى مستعمراتهم وفى مدنهم سلطات واسعة لم يكن لها مثيل فى المدن والقرى العربية الخالصة . وتستر الحكم البريطانى على التدريب العسكرى فى المستعمرات اليهودية ، وعلى تكوين تشكيلات عسكرية باسم وحدات الدفاع الذاتى . وفى سنوات الحرب العالمية الثانية تجمع مزيد من اليهود فى المنطقة . وكان قادة الصهيونية كثيراً ما يقيمون فى القاهرة حيث عمل أبا إيبان كضابط بالمخابرات البريطانية تحت اسم « الماجور إيفانز » . وأصبح لفلسطين وضع خاص فى الخطط البريطانية ، وليهودها دور هام فى اقتصاديات المنطقة ، وانضم عدد كبير من شباب اليهود إلى الجيش الثامن البريطانى ، ثم تشكلت منهم وحدات متميزة كانت نواة « الهاجاناه » .

وكانت هزيمة الفاشية العالمية فى الحرب العالمية الثانية نذيراً للاستعمار

بتفجير حركة التحرر الوطنى فى مختلف أنحاء ما يسمى اليوم العالم الثالث ، وعلى مستوى لم يسبق له مثيل . وكان أن اشتعلت الثورة فى أرض العرب التى لم تخمد نيرانها فيها تماماً طوال فترة ما بين الحربين . وبالفعل اندلعت الثورة فى الجزائر سنة ١٩٤٥ حيث قوبلت بقمع دموى رهيب . ثم التهب الموقف فى سورية ولبنان واضطرت فرنسا للانسحاب واكتسب البلدان استقلالهما كاملا . وشهد عام ١٩٤٦ مداً ثورياً عارماً على ضفاف النيل . ورفض الشعب المصرى محاولة التفاهم مع بريطانيا التى تمثلت فى مشروع معاهدة صدقى — بيفن . وفى العراق أسقط الشعب مشروع معاهدة مماثل عرف باسم بيفن — جبر . بدا الوطن العربى ، وبصفة خاصة الشرق العربى ، كالبركان لا تهدأ ناره فى موقع حتى تتوهج فى موقع آخر . وأدرك الاستعمار أن قبضته المباشرة لابد أن تنفك ، وأن قواته المحتلة محكوم عليها بالرحيل فى أجل غير بعيد . وفى هذه الظروف تبنى الاستعمار مشروع تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية على أرض العرب . وكان هذا الموقف جديداً ، يخالف كل وعود الدول الغربية . فبريطانيا نصت صراحة فى وعد بلفور على « ألا يمس إنشاء الوطن القومى لليهود » بحقوق عرب فلسطين ، وكانت تحاول عقب الحرب مباشرة كبح جماح المطامع الصهيونية المغالية وترفض أى تفكير عن التقسيم لاستحالته عملياً نظراً لتداخل المناطق ذات الأغلبية اليهودية فى المناطق ذات الأغلبية العربية ، ثم فجأة تحولت إلى تأييد التقسيم . والولايات المتحدة كانت قد قطعت عهداً على لسان روزفلت أثناء وجوده بالقاهرة بألا توافق على أى حل فيه إهدار لحقوق عرب فلسطين ، ومع ذلك تبنت مشروع التقسيم . ولا يمكن فصل هذا الموقف الجديد عن تطور حركة التحرر العربى وما كانت تبشر به من انتصارات . لقد بدا مشروع الدولة الصهيونية التجسيد الحى للوجود الغربى الاستعمارى فى وسط منطقة تعج

بالثورة الوطنية . ومن ثم كان حرص الغرب الاستعمارى على قيام إسرائيل ثم دعمها . ولم تقنع الدول الاستعمارية بالتصويت على قرار الأمم المتحدة ، بل أصدرت سنة ١٩٥٠ التصريح الثلاثى الذى أعلنت به أنها تضمن سلامة إسرائيل . ولكن المشكلة أصبحت فيما بعد ، أن إسرائيل هى التى اعتدت بحيث أصبح من المتعذر الاستناد إلى التصريح الثلاثى وتعين البحث عن صيغ أخرى لمساندة إسرائيل .

وكان مجرى الأحداث فى ربع القرن الذى انقضى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى فى اتجاه المزيد من الانتصارات لحركة التحرر العربى ، والمزيد من التصفية لقواعد الاستعمار فى مصر والعراق والأردن والجزائر واليمن الجنوبى . وظهرت فى الوطن العربى دول متحررة ترفض الأحلاف الاستعمارية وكل أشكال الارتباط بالاستعمار وترفع راية الحياد الإيجابى . ثم أخذت الثورة الوطنية فى عدد من البلاد تكتسب آفاقاً اجتماعية وتستهدف التحول الاشتراكى . وكان رد الاستعمار المزيد من الدعم لإسرائيل . وتعاونت بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة على تزويد إسرائيل بكل ما تحتاج إليه فى سخاء لا يكفى لتفسيره نفوذ الصهيونية فى تلك البلاد ، وإنما يفسره أساساً إحساس الدول الاستعمارية بأنها تدافع عن قضية تمسها بشكل مباشر ، وبأنها تصون مصالح للاستعمار الغربى أو « للعالم الحر » كما يقولون .

الإنكشارية الجديدة

ولكن الوجود الإسرائيلى قد أثبت أنه قادر على أداء خدمات جليلة للاستعمار تفوق مجرد السيطرة على جزء من الوطن العربى ، تعزل مصر عن أقطار الشام والعراق ، وتقطع الطريق البرى إلى شبه الجزيرة العربية . فالكفاءة العسكرية الإسرائيلية أضفت بعداً جديداً على دورها فى

المنطقة ، بعداً يستحق من الاستعمار كل تقدير وتحصل فى مقابله الدولة الصهيونية على المزيد من المساندة الاستعمارية . لقد رشحتها تلك الكفاءة لأن تكون كلب الحراسة الشرس الذى يحمى مصالح الاستعمار . فى كل فترة مد لحركة الثورة العربية ، كانت إسرائيل تتحرك لتضرب جاراتها العربية محاولة تعطيل التقدم .

فالحرب التى ولدت منها إسرائيل ، والتى أخذت الصهيونية المبادرة فى إشعالها ـ باحتلالها يافا وعكا وغيرها من المناطق التى كانت فى قرار التقسيم جزءاً من الدولة العربية الفلسطينية ـ قبل ١٥ مايو، الموعد المحدد لتنفيذ القرار المذكور ، لم تكن تعنى بالنسبة للعرب فقدان المزيد من أرض فلسطين فحسب ، بل إنها كانت فرصة ذهبية للاستعمار والرجعية العربية لضرب الحركة الوطنية واعتقال وقتل العناصر الثورية ، وإشاعة الإرهاب البوليسى لشل الحركة الوطنية بغية فرض شكل جديد من أشكال الارتباط بالاستعمار . لقد كانت تلك الحرب نكسة كبرى للعمل الوطنى ، كسرت موجة الثورة العارمة التى هزت أرجاء الوطن العربى من قسطنطينية إلى بغداد ، نكسة لم تخرج منها إلا بعد أربع سنوات عندما انتصرت فى مصر ثورة يولية ١٩٥٢ .

وفى مستهل عام ١٩٥٥ ، حين رفضت حكومة مصر مشروع حلف بغداد ، وخرجت تقاومه على المستوى العربى وتطرح فى مواجهة الحلف الاستعمارى فكرة الحلف العربى الخالص ، تقدم الجيش الإسرائيلى لاحتلال المنطقة المنزوعة السلاح على طول الحدود المصرية الإسرائيلية واعتدى على تلك الحدود . وحين أرادت القاهرة أن تدعم قدراتها الدفاعية ضد العدوان الإسرائيلى بشراء السلاح من الولايات المتحدة الأمريكية (وهى لم تكن عضواً فى حلف بغداد) ماطلت واشنطون ثم رفضت مؤكدة أن الوسيلة الوحيدة للحصول على السلاح الأمريكى هى الانضمام إلى حلف بغداد . ولكن هذا الرفض لم يزد مصر إلا إصراراً على

موقفها الاستقلالى . واشترك جمال عبد الناصر بدور بارز فى مؤتمر باندونج الذى كان نقطة البداية فى تصفية الاستعمار القديم . ثم أقدم على خطوة جريئة فى تحرير سياسة مصر الخارجية، فاشترى السلاح من الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا . وما كاد خبر هذه الصفقة يعرف فى خريف عام ١٩٥٥، حتى قامت إسرائيل بعدوان جديد على الحدود المصرية فى نوفمبر من نفس السنة . بل لقد باغ التبجح بالصهاينة حداً بعيداً . فحين هب الشعب الأردنى ليحبط محاولة ضم الأردن إلى حلف بغداد ، وبدا العرش الهاشمى مهدداً ، أعلنت جولدا مائير . وهى آنذاك وزيرة الخارجية فى تل أبيب ، إن إسرائيل تعتبر أى تغيير سياسى فى الأردن سبباً يبرر الحرب Casus belli . . . !

وفى سنة ١٩٥٦ ثبتت الثورة الجزائرية أقدامها ، وبدأ الكفاح المسلح يأخذ طابع الحرب الشعبية الشاملة بمساندة من الدول العربية وفى مقدمتها مصر . وأصبح الاعتقاد السائد لدى بعض الدوائر الفرنسية أن إسقاط النظام الحاكم فى مصر يمكن أن يكون ضربة قاضية للثورة الجزائرية . وفى الوقت نفسه لجأت أمريكا وبريطانيا للضغط الاقتصادى على مصر بسحب عرض تمويل السد العالى ، وبإلزام البنك الدولى بالرجوع عن اتفاقه مع القاهرة على الإسهام فى هذا المشروع الكبير . ومرة أخرى لم ينحن عبد الناصر ، بل بدأ إجراءات التحرر الاقتصادى بتأميم شركة قناة السويس . وثارت ثائرة الاستعمار الأوربى . فهذه شركة احتكارية عالمية تؤمم ، ويخلق تأميمها سابقة خطيرة . ومصر تجد فى موقفها تأييداً شاملا على مستوى الوطن العربى كله ، وكسب معركة التأميم يشكل دفعة جبارة لحركة التحرر العربى . ومن ثم كانت المؤامرة التعيسة . لقد تقدمت حكومة بن جوريون تعرض خدماتها . والتقى رؤساء وزارات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل كالمتآمرين فى ظل سرية مطلقة ليعدوا حملة عسكرية ضد مصر وشعبها

المناضل . وبدأت خيوط المؤامرة بعدوان إسرائيل . فاقتحمت القوات الإسرائيلية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ حدود مصر بحجة وجود نشاط للمقاومة الفلسطينية ، وتقدمت صوب قناة السويس تحميها طائرات فرنسية وإنجليزية . وفى اليوم التالى تعللت بريطانيا وفرنسا بأن الحرب تهدد الملاحة فى قناة السويس لتوجه إنذاراً لمصر بالانسحاب غربى القناة وترك شاطئيها لتحتلهما قوات فرنسية إنجليزية . ولم تكن مصر تملك إلا رفض الإنذار . فتم الغزو التعيس فى بور سعيد .

وفى سنة ١٩٦٧ جاء العدوان الإسرائيلى بعد أن افتضحت مؤامرة الإخوان المسلمين فى القاهرة ، وصمدت الجمهورية العربية المتحدة أمام الضغوط الأمريكية التى تمثلت بنوع خاص فى رفض بيع القمح الأمريكى وفقاً لشروط قانون فائض المحصولات الزراعية الأمريكى (والمعروف بالقانون رقم ٤٨٠)، وبعد أن خاض الحكم التقدمى فى سورية معركة هامة ضد الاحتكارات البترولية لاسترداد حقوق الشعب السورى فى الرسوم المفروضة على خطوط أنابيب البترول . كما نجح فى مقاومة تحركات الرجعية محاولة الانقلاب الخطيرة التى افتضحت فى سبتمبر عام ١٩٦٦ . وبدت الثورة اليمنية قادرة على الصمود ، فى حين انتصرت الثورة المسلحة فى اليمن الجنوبى بآفاقها التقدمية الواضحة . وهكذا اقتربت حركة الثورة العربية من منطقة الخليج أغنى مستودع عالمى للبترول . وبدا التقارب واضحاً بين الدول العربية التقدمية . وعندئذ كان لابد من عدوان خارجى . ولم يكن من السهل أن تتصدى أمريكا بنفسها لهذه العملية نظراً لتورطها فى فيتنام ولعلاقات القوى على الصعيد العالمى . وتقدمت إسرائيل لتتولى المهمة القذرة . حقاً إن إسرائيل كان لديها ، كما أوضحنا ، الأسباب الخاصة التى تحملها على العدوان . وقد قال أبا ايبان فى محاضرة له فى أمريكا فى يولية ١٩٦٥ بالحرف الواحد: « إنه ليس من المستبعد أن نرى

الدول العربية غداً تطالب بالعودة إلى حدود ١٩٦٦ ، أو ١٩٦٧ كما تطالب اليوم بالعودة إلى حدود ١٩٤٧» . ولكن التوقيت للعدوان جعل منه فى الوقت نفسه خدمة كبرى للاستعمار العالمى ، وبصفة خاصة للاستعمار الأمريكى .

وهذا الدور الذى تلعبه إسرائيل فى الشرق الأوسط يكسبها أهمية خاصة فى نظر واشنطون . فأمريكا التى تريد أن تقوم على نطاق العالم كله بدور الشرطى فى حماية مصالح الاستعمار وضرب حركات التحرر تحلم بوجود عدد من الدول تعتمد على مساعدات أمريكا الاقتصادية والعسكرية والسياسية وتتولى عنها عبء الصدام مع قوى التحرر . تلك الفكرة التى عبر عنها الجنرال ماك أرثر سنة ١٩٥٠ بصيغة «لنجعل الآسيويين يقاتلون الآسيويين » . ولكن هذه الفكرة لم تنجح إلا فى إسرائيل . ففى فيتنام لم تقف الحكومات العميلة على قدميها واضطر الجيش الأمريكى للتدخل على نطاق واسع . وفى سان دومينجو تدخلت مشاة البحرية الأمريكية . وفى كوبا آلت عملية «خليج الخنازير» التى كانت تعتمد على الكوبيين فى المنفى إلى إخفاق ذريع . وفى كوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية وغيرهما من الدول الخاضعة للنفوذ الأمريكى سخط عظيم على واشنطون وسياستها وعلى الحكومات العميلة التى تقيمها . أما إسرائيل فهى الدولة الوحيدة التى ترحب بالمساعدات الأمريكية ويغمرها العرفان بالجميل الأمريكى . وبها نظام حكم قوى ومستقر . ولها جيش ضخم يستحق وقفة قصيرة . لقد كتب معلق فرنسى من إذاعة «أوربا رقم ١» أن الجيش الإسرائيلى أكثر جيوش العالم ديموقراطية لأن كل الشعب الإسرائيلى فى الجيش . والواقع عكس ذلك تماماً ، وهو أن الجيش يسيطر على كل شىء فى حياة البلاد . إن إسرائيل بأكملها معسكر حربى كبير . ويبدأ تدريب الإسرائيليين من الجنسين على السلاح منذ الطفولة . وينشأ الشباب على العدوان وتمجيد العنف والتعلق بالسلاح . وكل من هم فى سن

التجنيد جنود فى الجيش العامل يرتدون ثياب الميدان بصفة دورية ويعيشون على صلة دائمة بالسلاح. مما يخلق جواً عسكرياً عاماً تمحى فيه الفروق بين العسكريين والمدنيين وتسود روح القتال وحب السلاح الشعب بأكمله. ووزارة الدفاع الإسرائيلية تسيطر مباشرة على عدد كبير من الأجهزة والهيئات التى تبدو لأول وهلة وكأنها لا شأن لها بالجيش مثل مزارع النقب ومزارع الحدود بصفة عامة. وشركة طيران «العال» . . . إلخ. والمؤسسة العسكرية تهيمن فى الواقع على الحياة السياسية فى البلاد. وتلك المؤسسة يسعدها أن تلعب دور «الإنكشارية» فى خدمة الاستعمار. وواشنطون من ناحيتها مستعدة لأن تدفع الثمن لمن يكفل لها حماية مصالحها فى البلاد العربية وفى مقدمتها البترول، ويعفيها من التورط المباشر بما يسببه لها من تعقيدات دولية تنشأ عن المساس بتوازن قوى عالمى غاية فى الدقة، ومن مشكلات داخلية تتولد عن مقتل المجندين الأمريكيين فى حروب استعمارية.

الهدف الاستراتيجى للغرب الاستعمارى

وفيما وراء المصالح المادية الملموسة لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك. يلوح الهدف الاستراتيجى للغرب الاستعمارى، ألا وهو الحيلولة دون الثورة العربية ودون تحقيق وحدة الأمة العربية فى دولة متحررة، ديمقراطية وتقدمية. إن الغرب يرى فى إسرائيل جزءاً منه زرعه زرعاً فى قلب الوطن العربى ليقسم الأرض العربية، ويكون ركيزة أمامية تحد من انطلاق الثورة العربية وتستنزف الكثير من مواردها. إن الجو الذى صاحب العدوان الإسرائيلى فى الغرب كان جو «حرب صليبية» يعيد إلى الأذهان أيام برباروسة وقلب الأسد ولويس التاسع. إننا كثيراً ما ننسى حقيقة الصدام الحضارى بين الغرب والوطن العربى. إن دعاة الحضارة الغربية يرون أنها الحضارة الأسمى (أو الحضارة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم، ولدت فى)

اليونان ، وانتصرت وانتشرت على يد الرومان ، ثم تفجرت ينابيعها من جديد بعد ظلمات العصور الوسطى فى أوربا الغربية ، ثم بلغت أوجها اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن بلادنا هى التكذيب الصارخ لهذا التبسيط العنصرى لتاريخ الحضارة البشرية . لقد كان فى وسع الغرب أن يتجاهل الصين والهند — على عراقة الحضارة فيهما — نظراً لبعدهما ولتأثيرهما المحدود فى تطور بقية البشرية . أما بلادنا فهى على الساحل المقابل من البحر المتوسط . وفيها ولدت أقدم الحضارات على ضفاف النيل والفرات وفى شمالى سورية وجنوبى جزيرة العرب .

وحين سيطرت أوربا الرومانية على هذه المنطقة لم تستطع أن تغير من وجهها ، ولا أن تطمس حضارتها أو تصبغها بصبغة الرومان . بل إن المسيحية التى ظهرت فى أرض فلسطين هى التى غزت الإمبراطورية وقوضت دعائم حضارتها القائمة على الرق . وحين صادرت الدولة الرومانية دين الناصرة وبيت لحم لحسابها ، وحاولت استغلاله فى دعم سيطرتها ، قاومها مسيحيو الشرق ، وفى مقدمتهم أقباط مصر .

ثم ظهر الإسلام نوراً وقوة فتحررت الأرض ، وقامت دولة كبرى ذات حضارة زاهرة ، رفضت التعصب العنصرى والدينى ، وعرفت من التسامح ما لم يسبقها إليه أحد ، تمثلت ما سبقها من حضارات ، وأخرجت للبشرية أعلاماً فى الفكر والفلسفة والعلوم . وحين أخذ التفكك يدب فى الدولة العربية الإسلامية ، سارعت أوربا لغزو الشرق العربى متسترة وراء الصليب . وغلب العرب فى مواقع كثيرة ، ولكنهم نجحوا فى النهاية فى رد الصليبيين على أعقابهم مدحورين . وانهارت مملكة أورشليم التى أقامها الصليبيون بعد أن عاشت قرابة المائة العام ، ولحقت بها إمارة أنطاكية ، وتطهرت أرض العرب من الغزاة الأجانب . وتعاون المسيحيون العرب مع المسلمين فى النضال من أجل هذا التحرر .

ولم تنس أوربا الهزيمة ولا فقدت الطمع . وحين دخل المارشال ألانبى القدس فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، كانت أولى كلماته : « الآن قد وضعنا حداً للحرب الصليبية ». ولكن بلادنا كانت فى العصر الحديث آخر بلاد وقعت فى قبضة الاستعمار الغربى . وكانت أول بلاد تمردت عليه وتخلصت منه . وهى من البلاد النادرة التى لم يستطع أن يغير من شخصيتها القومية ، أو يقتلع لغتها ، أو يضيع معالم حضارتها . إن مئات الألوف من الفرنسيين يؤيدون إسرائيل ، لا حباً فى اليهود ، ولكن لأنهم لا يغتفرون للعرب تأمم قناة السويس أو تحرر الجزائر . والبريطانيون يعادون العرب لأنهم طردوا من الشرق العربى كله . وكل الأمريكيين الذين تشبعوا بفلسفة تفوق أسلوب الحياة الأمريكى ورسالة الولايات المتحدة فى حماية « العالم الحر » وحضارته يرون فى حركة التحرر العربى عملا شيطانياً ، مثل وجود المعسكر الاشتراكى ، يهدد حضارة الرجل الأبيض وسيادته . . . ويحمل فى طياته احتمالات تأمم البترول .

إن نجاح الثورة العربية يعنى قيام دولة كبرى ، لها من عدد السكان واتساع الرقعة والموقع الجغرافى وغنى الموارد والتراث الحضارى ما يجعلها قادرة ، برغم ما تعانى من تخلف فى الحاضر ، على أن تتبوأ فى السياسة العالمية مركزاً مرموقاً ، وأن تقطع فى طريق التقدم شوطاً بعيداً فى زمن قصير . وتجربة الصين الشعبية ، التى دخلت عصر الذرة بعد أقل من عشرين عاماً من انتصار ثورتها ، دليل ساطع على القدرات الكامنة لدى الشعوب الكثيرة العدد العريقة الحضارة . والغرب الاستعمارى يدرك هذا كله . ولذلك فهو لا يألو جهداً فى التربص بحركة التحرر العربى ، ويستخدم كل ما تحتويه ترسانته من أسلحة الاستعمار قديمه وجديده ؛ لينال منها داخلياً وخارجياً : يستنزف قواها ومواردها ، ويفرق صفوفها ؛ ويحاول النيل من عزيمتها . وإسرائيل هي القطعة المختارة في لعبة الاستعمار الآثمة.



ألم الحاضر وأمل المستقبل . . .

٥

استراتيجية للنضال العربى

سراب الواقعية

لقد كشفت الصفحات السابقة عن حقيقة التحدى المروع الذى تواجهه الأمة العربية . فإسرائيل عدوان مستمر على شعب فلسطين تحرمه أرضه ووجوده الوطنى المستقل . وهى حالياً قد اعتدت على الدول العربية الثلاث : مصر وسوريا والأردن ، واحتلت أجزاء هامة من أراضيها ترفض الانسحاب منها ولا تتراجع أمام المطالبة الصريحة بضمها نهائياً وقيام دولة « إسرائيل الكبرى » كما قال ليفى أشكول . وهى مستقبلا خطر توسعى يهدد كل الشعوب العربية بالعدوان أو بالسيطرة الاقتصادية سواء فى ذلك عرب الشرق وعرب الغرب . وكل تلك المخططات الصهيونية تندرج فى التحليل الأخير فى إطار مخططات الإمبريالية العالمية ضد الوطن العربى ، وتشكل داخلها جزءاً متميزاً بأطماعه الخاصة وقدراته الذاتية .

وفى ضوء هذا الفهم لأبعاد التحدى الصهيونى الإمبريالى ينكشف سراب الواقعية أياً كان اللون الذى تظهر به . لقد وجد بين ظهرانينا من توهموا أن الاستعمار يحاربنا لأننا نقف موقف الحياد الإيجابى ولأننا قررنا هجر طريق الرأسمالية وتبنينا الاشتراكية هدفاً لمجتمعنا . ولكن العدوان الإسرائيلى على مطار بيروت وضع حداً ، أو ينبغى أن يضع حداً ، لكل تفكير « واقعى » من هذا النوع . فلبنان بلد رأسمالى بعيد كل البعد عن أى اتجاه نحو تدخل الدولة . وعلاقة لبنان بالدول الغربية ، وفى مقدمتها الولايات المتحدة ، علاقات طيبة للغاية .

وبيروت هي المقر الرئيسي للمصالح الأمريكية في المنطقة . ومع ذلك فإن هذا كله لم يحل دون العدوان الاسرائيلي . ولم تفد العلاقات الطيبة بالدول الغربية لبنان شيئاً . ولم يحصل القطر الشقيق إلا على قرار من مجلس الأمن بإدانة العدوان . أما تحرك فرنسا الذى تمثل فى حظر تصدير الأسلحة وقطع الغيار العسكرية إلى إسرائيل . فليس مرجعه الوحيد ما تحرص عليه باريس تقليدياً من علاقة خاصة بلبنان . وإنما هو فى المقام الأول امتداد للسياسة التى اختطتها حكومة ديجول منذ يونية ١٩٦٧ إزاء النزاع العربى الإسرائيلى ، والتى سنعود لتحليل أسبابها بعد قليل .

والدول العربية المنتجة للبترول تقع فى وهم خطير إذا ظنت أن مصالح الاستعمار البترولية تقيها ضد مطامع إسرائيل . فالبترول نفسه هدف يسيل له لعاب الصهيونية .. والاحتكارات البترولية مفتوحة للنفوذ الصهيونى شأنها فى ذلك شأن كل الاحتكارات العالمية . ومن السذاجة بمكان أن نكتفى بقبول الشركات العاملة فى أرضنا مبدأ عدم إرسال موظفين يهود للعمل فى بلادنا ، ونعتقد أننا بذلك نضع حداً للنفوذ الصهيونى فيها . فكلنا نعرف مدى القوة المالية لكبار الرأسماليين اليهود فى الولايات المتحدة ودورهم الكبير فى الاحتكارات الكبرى . فكيف يتأتى بعد ذلك الاعتقاد بأن احتكارات البترول بمنأى عن ذلك ؟ إن الاحتكارات البترولية الأمريكية بالذات يسعدها أن تشارك إسرائيل . وأن تعتمد على الخبرات الفنية التى توجد بها فى أعمال التنقيب والاستخراج . كما أنه يكون من المريح لها أن تركز عمليات تكرير البترول وتصنيعه فى حيفا وغيرها من موانئ إسرائيل لتصدر لأوربا منتجات بترولية بدل تصدير البترول الخام . فزيادة نسبة التصنيع تعنى زيادة الأرباح ، ونقل المنتجات البترولية أقل تكلفة من نقل البترول الخام .

ومن بين المثقفين من يتأثر بحديث فريق من مثقفى اليسار الأوربى .

فتراهم يسلمون بأن سياسة العداء لإسرائيل تمهد الطريق لوثوب العسكريين إلى السلطة في البلاد العربية ، وتهدد الحريات الديمقراطية ، وتحمل الاقتصاد القومى أعباء تسليح جسيمة تقتطع من الاستثمارات اللازمة للتنمية الاقتصادية . ويسوقهم هذا التفكير إلى توهم أن نظرة واقعية للأمور يمكن أن تحد من الخسائر . وأن التسليم بفقدان جزء من الوطن العربى والانصراف إلى تطوير أوضاع البلاد العربية الأخرى يكون أجدى للشعوب العربية . وموطن الزلل فى هذا الاستدلال هو افتراض أن إسرائيل يمكن أن تقنع بالوضع الذى كان قائماً قبل حرب يونية ، مع أننا قد أوضحنا فيما سبق كيف أن إسرائيل محكوم عليها بالتوسع والسعى للسيطرة الاقتصادية . أن مثل هذا النوع من الواقعية لا يعنى فقط التخلى عن شعب فلسطين الشقيق ، ولكنه فوق ذلك يفقدنا اليقظة ضد مخططات العدوان الصهيونى الإمبريالى . إننا لا نملك أن نسالم إسرائيل ، لأن السلام الذى تريده إسرائيل ، كالسلام الاستعمارى ، لا معنى له إلا السيطرة من جانبها والخضوع المتزايد من جانبنا . إننا لم نناضل منذ عشرات السنين ضد الاستعمار الأوربى لنترك استقلالنا السياسى والاقتصادى لقمة سائغة لحفنة من الصهاينة وسادتهم المستعمرين . وعبثاً يقال إن السياسة العربية تستعدى إسرائيل وتحملها على العدوان حملا بتهديدها المستمر للوجود الإسرائيلى . فعوامل العدوان والتوسع كامنة فى طبيعة إسرائيل . ونقد السياسة العربية السلبية يتمثل فى أنها تفيد الدعاية الصهيونية وتمكنها من قلب الأوضاع فى نظر الرأى العام العالمى فيبدو المعتدى الحقيقى فى ثوب الحمل الوديع المهدد بالإبادة ، فى حين يظهر المعتدى عليهم فى صورة الجبار الأثيم الذى يبيد الحرث والنسل ويقتل النساء والأطفال . إن إسرائيل يصدق عليها المثل الصينى : « إنك لا تستفز النمر ، لأنه مستفز بطبعه » . ولا ينبغى أن ينال منا ما يقال لنا عن سياسة التعايش السلمى . لأنه

لا تعايش سلمي بين المعتدى والمعتدى عليه - أو بين الاستعمار والشعب الذى يثور ضده . وإنما التعايش السلمى والمنافسة السلمية تكون بين النظام الاشتراكى والنظام الرأسمالى المستقر كل منهما فى عدد من الدول المستقلة ذات السيادة . كذلك يحاول لبعض المثقفين الأوربيين أن يلعبوا دور « حمامة السلام » على الأقل فى أوساط المثقفين . ويطيلون الحديث عن أهمية تسوية الخلافات بالطرق السلمية ، ويذكرون « روح طشقند » التى حالت دون الصدام المسلح بين الهند وباكستان . والقياس هنا مع الفارق الكبير . فالمشكلة فى الشرق الأوسط ليست صراعاً محلياً على الحدود بين دولتين مستقلتين ، وإنما هى مشكلة انتزاع أرض من أهلها وحرمانهم من الوجود الوطنى ليقوم محله وجود استعمارى غريب يهدد أمن البلاد العربية واستقلالها . ولنا أن نتساءل : فيم هذا الكلام الكثير عن التسليح وأضراره بالتنمية الاقتصادية ؟ ولماذا لا يستغرب أحد أن تنفق بلاد محايدة لم يمس حيادها أحد منذ عشرات السنين ، مثل سويسرا أو السويد ، اعتمادات طائلة على التسليح ، ونجد من ينكر على بلد مثل مصر تعرض للعدوان ثلاث مرات خلال عشرين عاماً أن يعد لنفسه أسباب القوة ؟ إن التنمية الاقتصادية لا يمكن أن تطرد وتؤتى ثمارها إلا فى ظل الاستقلال الكامل . ولذلك فإن نفقات صيانة هذا الاستقلال هى ، من الناحية الاقتصادية ، من النفقات العامة الضرورية التى لا بد منها لإجراء التنمية ، شأنها شأن وجود جهاز الدولة ، وتوفير الأمن الداخلى أو نشر الثقافة ... إلخ . والمشكلة الوحيدة التى تثور بصدد التسليح هى مدى فاعلية الإنفاق عليه ، أو بعبارة أخرى هى مشكلة الحصول على أعظم النتائج الممكنة من إنفاق معين . وهى القاعدة التى تحكم كل الاستثمارات غير الإنتاجية مثل التعليم والإسكان والصحة ... إلخ .

تحديد الهدف

إن صراعنا ضد المخطط الصهيوني الإمبريالي لا فكاك منه . إنه قدرنا المحتوم . فالإنسان لا يملك الاختيار بين الحرية والاسترقاق . لأنه إذا تخلى عن الأولى فإنما يتخلى عن طبيعته كإنسان . والشعوب العربية تدرك تلك الحقيقة إدراكاً عميقاً ، لا ينال منه تردد بعض الأوساط الحاكمة أو البلبلة الفكرية عند بعض المثقفين . لقد نجحت الدعاية الصهيونية فى إيهام قطاعات واسعة من الرأى العام العالمى بأن « العداء لإسرائيل » شعور يؤججه بعض الحكام العرب بطريقة مفتعلة ليصرفوا شعوبهم عن قضاياها الداخلية . ولكن هبة الشعب العربى فى مصر ، وفى كل البلاد العربية ، غداة هزيمة يونية ١٩٦٧ رافعاً شعار الاستمرار فى النضال كان ينبغى أن يضع حداً لتلك الأوهام . إن العداء للصهيونية والاستعمار فى نظر شعوبنا هو المحك الأول الذى يقوّم به الحكام والحكومات . وإن أعظم رصيد لأى زعيم عربى هو بالدقة نضاله الثابت ضد مخططات الإمبريالية والصهيونية . بل إن إسرائيل بتجسيدها للعدوان فى أبشع صوره وأكثرها فجاجة تحقق فى الصف العربى إجماعاً ضدها لا يجرؤ أحد على الخروج عليه . وتلك حقيقة جوهرية من حقائق ما يسمى « أزمة الشرق الأوسط » يتعين على كل من يعنيهم الأمر أن يأخذوها فى الحسبان .

وعلينا أن نقر بأنه بينما أخذت الشعوب العربية زمام المبادرة فى النضال ضد أشكال الاستعمار القديم حتى كادت تقضى عليه تماماً من ربوع الوطن العربى ، وتنبهت لأساليب الاستعمار الجديد فشنت ضدها نضالا لا يلين ، كانت المبادرة فى الصدام مع إسرائيل بيد الصهيونية بصورة تكاد تكون دائمة . لقد تساءلنا كثيراً فى أعقاب النكسة الكبرى عن أخطاء السياسة العربية إزاء إسرائيل . وفى تقديرى أن الخطيئة الأولى فى هذا

المجال كانت بالذات عدم وجود سياسة عربية أصلا . لقد تمسكنا بموقف مبدئى هو رفض التسليم بالأمر الواقع الذى صنعته الصهيونية بمساندة الاستعمار . وكان الإصرار على هذا الرفض برغم الهزائم والنكبات والضغوط العنيفة موقفاً رائعاً ونبيلا . ولكنه لم يكن كافياً بحال أمام الزحف الصهيونى . وإن الصدام بين حركة التحرر العربى وبين مخطط الصهيونية والاستعمار . أياً كانت الأشكال التى يتخذها : هو من طبيعة الحرب . ولذلك فلا يمكن أن نقنع فيه بصفة دائمة بموقف الدفاع تاركين المبادرة بيد العدو . بل لا بد أن تكون لنا خطة للهجوم . ولا يمكن أن تكون لنا مثل هذه الخطة إلا إذا تحددت أمامنا أهداف واضحة نناضل من أجلها وتحكم حركتنا كلها . وتلك الأهداف لا يمكن أن تكون مجرد « إعادة الأحوال إلى ما كانت عليه قبل عشرين أو خمسين عاماً » . فالتاريخ لا يرجع القهقرى ، وإنما يسير إلى الأمام . وتصورنا لأهداف نضالنا يجب أن يدخله البعد التاريخى ، فيكون تصوراً للمستقبل آخذاً فى الحسبان وقائع الحاضر المادية ، واحتمالات الغد فى حياتنا وحياة أعدائنا وحياة العالم المحيط بنا وبهم .

نعم . لقد اتسمت تصرفاتنا خلال العشرين عاماً الماضية بطابع « رد الفعل » إزاء تصرفات العدو ، ولم تتخذ قط طابع « الفعل » . وبقدر قصور حركتنا إزاء حركة الصهيونية كان صوتنا عالياً وتهديداتنا صارخة ومواقفنا عصبية ومتفرقة . ولكى « نفعل » لا بد أن يكون محتوى الفعل واضحاً لا يشوبه لبس وإلا غدا قعقعة لا تغنى أو ارتد إلى صدورنا سهاماً قاتلة . ولكى نتحرك ، لا بد أن يكون لمسيرتنا غاية نهدف إليها ونهتدى بها ، وإلا غدا السير تيهاً فى الصحراء يمكن أن يدور فى حلقة مفرغة . وبشىء من ضبط النفس وهدوء التفكير ، وقدر معقول من الواقعية الثورية ، يمكن أن نحدد هدفنا بشكل حاسم بأنه :

« تصفية وضع إسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية فى قلب الوطن العربى »

وبهذا التحديد يتبين فوراً أننا لا نستهدف بأية حال من الأحوال إبادة اليهود المقيمين فى فلسطين ، أو إلقاءهم إلى البحر ، أو طردهم بالقوة . فمثل تلك الأغراض غريبة تماماً عن تقاليدنا الحضارية . فى تاريخنا الطويل كانت رسالة العرب حضارة وسلاماً ولم تكن هدماً ولا تخريباً ولا إبادة . كما أن المشكلة فى مستوى الصراع الحالى ليست مشكلة « ثأر » ، لسنا بصدد تطبيق قانون التوراة « العين بالعين والسن بالسن » وأن نفعل باليهود فى إسرائيل ما فعله الصهاينة بالعرب . إن نسبة غير صغيرة من الإسرائيليين كانوا يعيشون فى البلاد العربية قبل الهجرة التى جرفتهم إليها أمواج الدعاية الصهيونية وأموال الوكالة اليهودية . وهم أقرب إلينا حضارياً منهم إلى اليهود الغربيين . والحق أن المشكلة تكمن لدى اليهود فى إسرائيل أكثر مما هى فى يد العرب . إن ما يعنينا فى الجوهر أمور ثلاثة :

١ — حق الشعب الفلسطينى فى أرضه ووطنه واستقلاله .

٢ — ألا يعنى وجود يهود فى فلسطين الادعاء بوجود وطن بها لكل يهود العالم .

٣ — ألا يكون هذا الوجود تجسيداً لارتباط بالغرب الاستعمارى .

وعلى ذلك فإن مستقبل الطائفة اليهودية فى فلسطين يتوقف على تسليمها بحقوق شعب فلسطين ، وفصمها لعرى الصهيونية العالمية ، وبتقبلها أن تصبح جزءاً من المنطقة التى تعيش فيها وليس رأس جسر أجنبى ضد آمالها وأمانيها . إن الأمة العربية حين تناضل فى سبيل وحدة أراضيها وحين تضع صيغة اتحادية تجمع شملها ، تدرك حقيقة أن هذه الأرض تضم فى أجزاء منها أقليات قومية . والشعار الثورى الوحيد هو التمسك بوحدة

التراب العربي . مع احترام حقوق الأقليات القومية . إننا نؤمن بفكرة أن شعباً يقهر شعباً آخر لا يمكن أن يكون هو نفسه شعباً كامل الحرية . والثورة العربية بأبعادها التحررية والاجتماعية تلفظ القهر القومي والتعصب العنصري في كل الصور . إننا لا يمكن أن نقبل بقاء قاعدة استعمارية عدوانية على أرضنا . ولا يمكن أن يستهدف نضالنا هدفاً غير تصفية تلك القاعدة . ولكننا لا نضمر عداء عنصرياً لليهود كأفراد . ولا نقول هذا بقصد التأثير في الرأى العام العالمي . فنحن نعلم أننا لا يمكن في قضايانا الأساسية أن نتكلم لغتين . فنقول كلاماً للاستهلاك الخارجي . وآخر للجماهير في الداخل . بل نعلن هدفنا واضحاً في الداخل والخارج معاً . وسنده في المجالين هو تاريخنا ذاته بشقيه : رفض السيطرة الأجنبية ، ورفض التعصب العنصري .

صراع طويل ومرير

وبتحديد الهدف على هذا النحو يتبين لنا أنه يعني نضالا طويلا وشاقاً . متشعباً في مجالاته ، متنوعاً في أساليبه ، مريراً فيما يستوجب من تضحيات . فتصفية القاعدة الصهيونية الاستعمارية لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة .. ويجب ألا نخدع أنفسنا عن هذا الواقع المرير . يجب أن ندرك تماماً أنه في حدود علاقات القوى الحالية في المنطقة لا يستطيع العرب سحق العسكرية الإسرائيلية حتى بدون تدخل مباشر من القوات الاستعمارية . وعبثاً نحاول أن ندور حول هذه الحقيقة برفع شعار الحرب الشعبية . ذلك أن الحرب الشعبية في جوهرها حرب ثورية يخوضها شعب ضد جيش احتلال أجنبي أو جيش رجعي محلي . وهدفها في الحالة الأولى إقناع المحتل باستحالة الاستمرار في الاحتلال لأن تكلفته باهظة تفوق بكثير كل المزايا التي يحصل عليها المستعمر منه .

وهذا بالدقة ما حدث فى الجزائر فحمل حكومة ديجول على المفاوضة ثم الانسحاب . وهذا ما يحدث اليوم فى فيتنام . فالنضال البطولى للشعب الفيتنامى لم يقذف بالأمريكيين فى المحيط ، ولكنه أثبت لهم استحالة استمرار العدوان وتحقيق أهدافه . أما فى الحرب الأهلية ، فإن الحرب الشعبية إما أن تفضى إلى انهيار النظام الرجعى من الداخل ، وإما أن تتحول إلى حرب نظامية . وجيوش « ماو » التى وجهت الضربة القاضية إلى تشانج كاى تشيك واحتلت بكين وكانتون وشنغهاى كانت جيوشاً نظامية . أما إسرائيل فإنها تمركز قوتها الضاربة داخل حدود دولية معترف بها وفى إطار سيطرتها العددية . وحتى إذا تخيلنا جدلا مواجهة عامة للاستعمار وإسرائيل بحرب شعبية على نطاق الشرق العربى كله ، فإن الإعداد لها وتوفير ظروفها داخل الدول العربية أمر يستغرق عدة سنوات ، كما أن الحرب الشعبية نفسها ليست حرباً خاطفة وإنما هى سنوات قتال طويلة . ولكل ذلك فلا بد أن نتخلى عن نفاد الصبر وقصر النفس وبدل أن نعلل أنفسنا بعمل خارق علينا أن نهيئها لنضال طويل ومرير . ولنا أن نتمثل تجربة العدو الصهيونى الذى رسم استراتيجيته على مدى قرن ، فقد مرت أكثر من عشرين سنة بين تحديد الصهيونية لهدف إقامة دولة فى إسرائيل وبين الحصول على وعد بلفور ، ومرت ثلاثون سنة بين الوعد المشئوم وإقامة الدولة بالفعل . ولم يكن كل ذلك إلا خطوة أولى .

وليكن واضحاً تماماً ما نريد أن نقول . إنه بعيد تماماً عن فكرنا أن نهوّن من دور المقاومة الفلسطينية ، بل على العكس سنعود لنؤكد أنه حجر الزاوية فى كل خطة من أجل فلسطين . كما أننا لا نعارض الكفاح المسلح ، بل نرى من الضرورى أن تتخذ المقاومة فى كل أرض محتلة فى مرحلة ما من مراحل تطورها شكل الكفاح المسلح . وأخيراً نحن لا نستبعد أصلا فكرة الحرب الشعبية ، فقد نواجه أوضاعاً تكون فيها تلك الحرب

أنسب أشكال القتال من أجل أهدافنا . وإنما كل ما نريد إبرازه هو الخطر الداهم الذى يتمثل فى توهم أن ثمة شيئاً معيناً بذاته يمكن أن نفعله فنتخلص فوراً من القاعدة الصهيونية الاستعمارية . ففى مواجهة قوتها العسكرية لابد من أن ننمى جنباً إلى جنب المقاومة بكل صورها (وفى مقدمتها الكفاح المسلح) والقوة العسكرية النظامية للدول العربية .ولكننا لا نواجه إسرائيل وحدها . وإنما نواجه القوى الاستعمارية التى تساندها . ومن ثم يكون من الخطأ الجسيم أن نركز كل جهودنا ضد إسرائيل . ونهمل المعركة ضد الاستعمار . أن نستعد مثلا لقتال المعتدى الإسرائيلى وننسى قواعد عسكرية للاستعمار يمكن من داخل الوطن العربى أن تهب لمساندة العدو .

ومن ناحية أخرى الحرب فى عالم اليوم ليست ظاهرة عسكرية خالصة . بل إن القوة العسكرية هى التعبير الأخير عن تقدم اقتصادى وتكنولوجى وطاقات بشرية أخذت بأسباب الحياة الحديثة . ومن ثم فإن تطوير اقتصادنا القومى ، وتصنيع بلادنا ، وتحرير الإنسان العربى من القهر والاستغلال . وإتاحة أحدث المعارف البشرية له جزء أساسى من عدتنا فى النضال .

وعلاقات القوى الدولية ، وموقف الرأى العام العالمى ، بل حالة الرأى العام داخل إسرائيل نفسها . . . كلها عوامل لها تأثيرها الهام فى مجرى الصراع ويجب أن تحظى بجانب كبير من عناية العرب .

وخلاصة ذلك كله أننا بصدد صراع طويل ومرير . ولا بد إذاً من تخطيط طويل الأمد لهذا الصراع . أو بعبارة أخرى لا بد من تحديد استراتيجية للصراع العربى الإسرائيلى . فالاستراتيجية فى لغة العسكريين هى خطة كسب الحرب ، فى حين أن التكتيك هو خطة كسب معركة معينة . ومن المسلم به أن الاستراتيجية تحكم التكتيك ، بمعنى أن المعارك

المتوالية يجب أن تسير فى خط متسق بحيث تفضى فى النهاية إلى كسب الحرب . ولما كانت الحرب ليست إلا استمراراً للسياسة بوسائل عنيفة . فإن الصراع السياسى نفسه يخضع لقاعدة التمييز بين الاستراتيجية والتكتيك . والصراع الذى نخوضه ضد الصهيونية والاستعمار صراع شامل تدخل فى إطاره السياسة والحرب جميعاً . ومن ثم فلابد أن تكون لنا استراتيجية واضحة المعالم تندرج فى إطارها كل مواقفنا التكتيكية أياً كانت طبيعتها : عسكرية أو سياسية أو دعائية . فليست هناك معركة واحدة حاسمة فى مثل هذا الصراع . وإنما النصر فيه تتويج لكثرة من المعارك السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية يتكامل مفعولها بحيث تفضى فى النهاية إلى تصفية قاعدة العدوان .

عناصر لاستراتيجية عربية

وتخطيط استراتيجية للنضال العربى ضد مخططات الصهيونية والاستعمار ليس أمراً سهلا . لقد عرضنا فى الصفحات السابقة لأهم الأوضاع البالغة التعقيد التى تحيط بالظاهرة الإسرائيلية . كما أن أوضاع الوطن العربى وما نعرفه من مشكلات وخلافات ليس من شأنها تيسير الرؤية الصادقة والتقدير الموضوعى . ومن ناحية ثالثة ليست الخطة الاستراتيجية مجموعة من « الوصفات » تلتقط هنا وهناك من بين صفحات الكتب أو من واقع تجارب الشعوب المعاصرة بطريقة انتقائية ، وبغض النظر عن كل ضرورات الاتساق الداخلى والمطابقة لواقع النضال فى البلاد العربية . وأخيراً ، وليس هذا بأقل الأمور أهمية ، استراتيجية النضال لا يمكن أن تكون عملية حسابية معقدة يعد عناصرها « خبراء » وتعطى حلها الحاسبات الإليكترونية ، فليس هناك حلول « تكنولوجية » لقضايا الشعوب التى تكافح من أجل الحرية .

وفى تقديرنا أن تحديد استراتيجية النضال العربى ضد الظاهرة الصهيونية والاستعمارية يجب أن يكون الواجب الأول للقوى الثورية العربية . لقد اختلفت تلك القوى فيما بينها خلال السنوات العشر التى سبقت العدوان كأشد ما يكون الخلاف . وتصارعت حتى بلغ الصراع حد الصدام الدموى . ولكن ذلك كله يدور حول قضايا السلطة . وأشكال الحكم ، وطرق التطور الاجتماعى ، وسبل التوحيد القومى ، واختلطت الأمور خلال هذا كله اختلاطاً شديداً . واستنزف الصراع الداخلى بين القوى الثورية طاقات ثورية هائلة ، وحرم النضال العربى من كثير من المناضلين ذوى الخبرة والصلابة . وأشاع البلبلة فى صفوف الجماهير . وعاق تحقيق مكاسب وطنية وقومية واجتماعية كانت ممكنة التحقيق . ولكن أخطر ما أسفر عنه هذا الصراع . هو أن بعض القوى الثورية العربية لم تضع النضال ضد الاستعمار والصهيونية موضعه الصحيح : فى رأس قائمة المهام الثورية . حقاً إن الجميع كانوا يندون بالاستعمار وبإسرائيل ويحذرون من الإمبريالية ومؤامراتها . ولكن الأمور كثيراً ما كانت تقف عند هذا الحد من التأكيد المجرد الذى لا يصاحبه تخطيط للأهداف الوسيطة وتحديد للوسائل . وأحياناً كانت الأمور تتدهور فتطرح قضية فلسطين لتكون عنصر مزايدة . لقد كان من الميسور دائماً أن يقول هذا السياسى أو ذاك أعنف الكلام ضد إسرائيل، لأنه فى واقع الحال سيظل كلاماً ، وإذا سئل قائله لماذا لم ينفذه احتج بأن تقاعس حكومات عربية أخرى منعه من تنفيذه . هذا ، فى حين أن الوعود فى قضايا داخلية حين تصدر ممن هم فى السلطة تحسبها الجماهير وتحاسب على عدم تنفيذها . وليس أسوأ من جو المزايدة حين يتعين التفكير الهادئ والمسئول . إن الشعوب العربية تطالب بعد نكسة ١٩٦٧ قادة الاتجاهات الثورية بالجدية والشعور بالمسئولية . . إنها كانت تتطلع لأن تكشف النكسة

بأبعادها الرهيبة الغطاء عن كل عين فتتداعى القوى الثورية والوطنية لتقف كتفاً إلى كتف فى معركة المصير . ولكننا نرى والأسف ملء القلوب ، أنه بالرغم من بعض المظاهر الصحية التى بدت فى الجو العربى بصفة عامة ، ما زال التفرق هو الطابع المميز للقوى الثورية . وبدل أن يكون ظهور قوى ثورية جديدة عنصر دعم وتعزيز ، أصبح مظهراً جديداً للفرقة والحركة غير المتسقة . وما زالت المزايدات لغة شائعة ، وما زال شعب فلسطين موضوعها المفضل . إن تآلف القوى الثورية لا يمكن أن يكون ثورياً إذا أخذ شكل مصالحة غير مبدئية أو مهادنة وقتية . فوحدة الثوار لا تتم إلا باتفاقهم على خط ثورى . ولا يعنى الالتقاء حول خط ثورى أساسى تلاشى كل الخلافات ، وإلا تحولت تلك القوى جميعاً إلى قوة واحدة . وإنما معنى وحدة القوى الثورية الواقعى هو الالتقاء حول خط أساسى فيما يتعلق بالمعركة الرئيسية مع الاحتفاظ بوجهات النظر المختلفة فى قضايا أخرى كثيرة . لقد انتشرت فى صيف سنة ١٩٦٧ فكرة « مؤتمر للقوى الشعبية على مستوى الوطن العربى » . وحاول بعد ذلك بعض الذين حضروا « ندوة الاشتراكيين العرب » فى الجزائر ، تحريك منظميها لعقد دورة أخرى ، أوسع نطاقاً وأكثر التحاماً بقضايانا الراهنة . ويبدو أن البعض ما زالوا مترددين خشية أن يسفر أى اجتماع بين القوى الثورية عن مزيد من الفرقة ، أو على الأقل عن مزيد من الإعلان عن الخلافات . وفى تقديرى أنه من الضرورى أن ينعقد مثل هذا المؤتمر ليناقش موضوعاً وحيداً هو « استراتيجية العمل العربى ضد الصهيونية والاستعمار » ، على أن يعد له إعداد طيب وتقدم له وثائق مدروسة . وإذا لم يفض المؤتمر إلى إجماع ، فإنه سيكون خطوة فى سبيل الإجماع لأنه سيحدد على الأقل مشروعاً للاستراتيجية يتبناه عدد من القوى الثورية . وعندئذ يطرح هذا المشروع بين جماهيرنا العريضة للبحث والمناقشة بغية التطوير والتعديل

وبعدها يمكن فى اجتماعات لاحقة تحقيق قدر أكبر من التقريب بين وجهات النظر. إنه طريق يبدو طويلا ووعراً. ولكن ليس ثمة طريق آخر. فاستراتيجية العمل العربى هنا لا يمكن أن ينفرد بها حزب أو اتجاه أو بلد عربى. لأنها تحيط بالوطن العربى كله بالضرورة. ومن ثم لا بد من إشراك كل القوى الثورية فى إعدادها ، بل من إشراك الجماهير نفسها. وليتم كل ذلك على المستوى الشعبى لكى تبقى للحكومات حرية حركتها كاملة فى الظروف الحرجة التى تمر بها البلاد.

وإذا كان ذلك رأينا فى كيف توضع استراتيجية للعمل العربى ضد الصهيونية والاستعمار ، فإنه من غير المتصور أن يدعى كاتب أو مفكر أو سياسى أن بوسعه أن يضع وحده ولو الخطوط العريضة لتلك الاستراتيجية. وكل ما يستطيع المرء أن يقدمه فى هذا المجال هو أن يؤكد على أمور يرى أنها عناصر أساسية فى أى استراتيجية جادة لمواجهة هذا الصراع المصيرى. وفى تقدير كاتب هذه السطور أن من أبرز تلك العناصر ما يلى :

١ — دور الشعب الفلسطينى ، فهو الضحية الأولى ، وصاحب الحق المهضوم ونضاله من أجل وطنه قضية واضحة لا يمكن طمسها بحال.

٢ — محاصرة إسرائيل ، وما يعنيه ذلك من عدم الاعتراف بها وعدم المفاوضة معها.

٣ — تشديد النضال ضد الاستعمار.

٤ — بناء الوطن العربى اقتصادياً وسياسياً وثقافياً وعسكرياً.

٥ — اليقظة والقدرة على الردع.

٦ — عرض قضيتنا على الرأى العام العالمى.

٧ — فضح الصهيونية وحكام إسرائيل أمام الجماهير الإسرائيلية وأمام اليهود بصفة عامة.

ولنفصل فى الصفحات التالية بعضاً من هذا الإجمال.

٦

الشعب الفلسطينى
الضحية الأولى وصاحب الحق الأول

مؤامرة الصمت

كتب هرتزل منذ أكثر من ستين عاماً يقول : « إن الصهيونية مسألة نقل . فهناك شعب لا وطن له ، ووطن لا شعب فيه ، والصهيونية تريد أن تنقل الأول إلى الثانى » . وفى منطق أوربا فى العصر الذى كان يكتب فيه هرتزل لم يكن قوله هذا ليصدم شعور غالبية الأوربيين . ففى معتقدهم آنذاك أن القومية والوطن والاستقلال مفاهيم ذات دلالة فقط بالنسبة للشعوب المتحضرة ، أى للشعوب الأوربية أو ذات الأصل الأوربى . أما شعوب آسيا وإفريقيا فليس لها علاقة بمثل تلك المفاهيم الرفيعة . ولكن ما نريد أن نبرزه هو أن الحركة الصهيونية قد التزمت بفكر مؤسسها فى هذا الشأن ، وعملت بكل طاقاتها على أن تسحب على حقوق شعب فلسطين ، بل على وجوده ذاته ، ظل النسيان . وما زلنا نسمع الناس فى أوربا يرددون حتى اليوم مثلا أن الصهيونية لم تغتصب الأرض من أهلها ، وإنما اشترت جزءاً كبيراً منها من الملاك العرب ، واستصلحت جزءاً آخر كان العرب عاجزين تماماً عن استصلاحه . فلا غصب ولا اغتصاب . وقد سبق أن أشرنا إلى أن كل محاولات الاستعمار الاستيطانى كانت تصطحب بمحاولات لإضفاء طابع « القانونية » — ولا نقول المشروعية — على عملية اغتصاب الأرض من أصحابها . ومع ذلك فالقسم الأساسى من الأرض العربية الذى استولت عليه الصهيونية كان ملكاً للعرب الذين طردتهم

إسرائيل سنة ١٩٤٨ . أى منذ أن تقرر إنشاؤها وفى الشهور الأولى لحياتها كدولة . وتقول الدعاية الصهيونية هنا إنها لم تطرد أحداً ، وإنما هاجر العرب استجابة لنداء من بعض قادتهم وأملا فى العودة منتصرين خلف جيوش الدول العربية ، وتركوا أملاكاً شاغرة كان من غير المتصور أن تبقى كذلك . وهذا افتراء كامل . فالمذابح التى لجأت إليها بعض العصابات الصهيونية ، وعمليات الإرهاب التى مارستها السلطات الإسرائيلية الرسمية تمت بهدف واع هو إشاعة الفزع بين العرب وحملهم على مغادرة الأرض . وهيئة الأمم المتحدة قد أصدرت عدداً كبيراً من القرارات يلزم إسرائيل بقبول عودة اللاجئين أو تعويضهم ولم تنفذ إسرائيل أياً من تلك القرارات . والمهم فى كل ذلك هو تحايل الصهيونية بقصد إلغاء مشكلة شعب فلسطين إلغاء ، وإثبات أن اليهود قد هاجروا إلى أرض خلاء ، ولم ينتزعوا وطن أى شعب .

ولا شك أن أخطاء القيادات الفلسطينية فى الفترة التى سبقت قيام دولة إسرائيل لعبت دوراً هاماً فى هذا المجال . لقد توهم بعض أولئك القادة أن ألمانيا الهتلرية ، بحكم عدائها لليهود ، يمكن أن « تنصف » العرب . وجذر هذا الخطأ كان فى كثير من الأحوال الوضع الطبقى لأولئك القادة الذى كان يمنعهم من الاعتماد على الشعب الفلسطينى ونضاله ويجعلهم يعرضون عن كل فكر ديمقراطى أو تقدمى . وقد تورط هؤلاء القادة إلى أبعد الحدود فى التعاون مع النازية والفاشية ، متناسين تنكيل موسولينى بالوطنيين فى ليبيا . وكان من نتائج هذا التورط أن بدت الأمور أمام الرأى العام العالمى كما لو كانت اختياراً بين ضحايا النازية من جهة ، والمتعاونين مع النازية من جهة أخرى . وما كان أسهل عندئذ أن تصف أبواق الصهيونية هؤلاء الساسة بأنهم « عملاء النازية » أو « مجرمو حرب » لا يتصور أن يكونوا ممثلين لشعب . وفى مثل هذا الجو يمكن أن يغطى

الضجيج على الشعب نفسه ومأساته . كذلك كان من أخطاء القيادات الفلسطينية فى سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨ سوء تقديرها للموقف المحلى والدولى الذى ساقها عملياً إلى أن تضع الشعب الفلسطينى أمام اختيار بين عدم وجود فلسطين أصلا ، أو بقائها عربية كاملة . إن قرار التقسيم كان قراراً جائراً يحاول إصباغ صفة المشروعية على عملية اغتصاب استعمارية . وكان من غير المتصور أن يسلم به الشعب الذى اغتصب جزء من أراضيه . ولكن السؤال هو : لماذا لم تتمسك القيادات الفلسطينية بالدولة العربية الفلسطينية التى نص عليها قرار التقسيم ؟ لقد تظاهرت إسرائيل بقبول قرار التقسيم ولكنها لم تنفذ منه إلا ما تعلق بوجودها كدولة ، بل اعتدت عليه باحتلالها أجزاء من إقليم الدولة العربية . ولم يكن هناك ما يمنع إطلاقاً من إدانة قرار التقسيم ورفضه ، مع التمسك فى نفس الوقت بقيام الدولة العربية حفاظاً على اسم فلسطين وإبقاء على جزء من أرضها يكون قاعدة للنضال من أجل حقوق شعبها كاملة غير منقوصة . لقد رفضت جبهة التحرير الجزائرية أى حل يقوم على التقسيم وتمسكت بوحدة التراب الجزائرى . ولكن ظروفها كانت مختلفة . فعلاقات القوة كانت تسمح لهذا الهدف بأن يكون واقعياً ، وتضمن فرصاً معقولة لنجاح النضال من أجله . ولم يكن ثم قرار دولى بالتقسيم . أما فى فلسطين سنة ١٩٤٧ ، فإن القيادات الرسمية نفسها كانت تسلم مقدماً بعجزها عن مقاومة الصهيونية ، ومع ذلك فقد تخلت عن حق شعب فلسطين فى جزء من أرضه .

وشاركت الحكومات العربية القائمة فى ذلك الوقت فى اكمال عناصر المأساة . فقد شجعت الحكومات القادة الفلسطينيين بتأكيدها لهم أن الجيوش العربية ستتدخل بمجرد انسحاب الإنجليز وأن لها من القدرة ما يمكن من سحق العصابات اليهودية والقضاء على « إسرائيل المزعومة » . لقد قال رئيس وزراء مصر فى الجلسة السرية للبرلمان عند مناقشة ما سمى

آنذاك «حملة فلسطين» إن المسألة لن تعدو أن تكون نزهة حربية. وطمأن أعضاء المجلسين بإبلاغهم تأكيد الإنجليز بأن الأسلحة والذخيرة المتوافرة فى القاعدة البريطانية على قناة السويس ستكون تحت تصرف الجيش المصرى. ولم تكن تلك الحكومات الرجعية جادة فى أى شيء. إن أول ما اهتمت به هو استغلال حرب فلسطين فى فرض الأحكام العرفية للتنكيل بخصومها السياسيين وضرب الحركة الوطنية ومحاولة تصفية المد الوطنى الذى نجح فى إسقاط عدد كبير من الوزارات. وأخذ الملوك يتنافسون حول من تكون له القيادة العليا، ومن يحتل قبل غيره أجزاء من فلسطين. وحالت تلك المنافسات دون التنسيق بين الجيوش العربية. وبلغ الإجرام حد اتخاذ الحرب وسيلة للإثراء السريع بتزويد المقاتلين بأسلحة فاسدة. إن الحكومات الرجعية كانت عاجزة عجزاً أصيلا عن كسب تلك الحرب، لأنها كانت فى جوهرها حرباً ضد الاستعمار. ولم يكن متصوراً أن أولئك الذين يقبلون بقاء الاحتلال فى بلادهم يستطيعون مخالفة المستعمر وإحباط خططه فى فلسطين. وكانت خاتمة هذا الركب الرهيب من المسئوليات الجسام ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن ضمن مملكة جديدة تحمل اسم الأردن. إننا لا نطرح اليوم موضوع وحدة الأراضى الأردنية، ونرفض أى محاولة إسرائيلية تتعلل بأن الضفة الغربية فلسطينية لترفض الانسحاب منها وتسليمها للأردن. ولكننا نريد أن نقول إن ماحدث سنة ١٩٤٩ قضى نهائياً على اسم فلسطين. لقد محى الاسم من الخرائط. لم تعد فلسطين بلداً اعتدى عليه غزاة أجانب فانتزعوا جزءاً من أرضه، بل اختفت فلسطين تماماً.

وكان طبيعياً بعد ذلك أن تلح إسرائيل فى إزالة كل ما يذكر باسم فلسطين. وأن تحدث العالم كله بأن عدم الاستقرار فى الشرق الأوسط مرده تهديد جاراتها العربية لأمنها وسلامتها. لم تعد هناك مشكلة فلسطين

إلا فى أذهان الفلسطينيين أنفسهم والشعوب العربية . وغدت القضية عالمياً قضية توتر على الحدود بين إسرائيل والدول العربية . لقد تكاتفت كل تلك العوامل على سحب صاحب الحق الأول من الصورة ، وحرمانه من كل صوت . واستقر فى الأذهان بطريقة أو بأخرى تفكير سقيم ملخصه أن الشعب الفلسطيني وحده لا يستطيع مقاومة إسرائيل ، بل لابد من الجهود المشتركة للدول العربية ، وما دامت الأمور كذلك فإنه من الواجب أن يكون لتلك الدول الكلمة الحاسمة فى كل ما يتصل بالموضوع . وباسم الدفاع عن شعب فلسطين ، فرضت عليه الوصاية ، وحظر عليه أن يفكر لنفسه أو يناضل من أجل أرضه . ولم يبق من المشكلة كلها أثر حى ملموس إلا مليون لاجئ ، تنطق مخيماتهم بعدوان الصهيونية وتآمر الاستعمار وأخطاء القيادات وتخاذل بعض الحكومات والمزايدات الفارغة من البعض الآخر . وحتى هذه المشكلة حرصت الصهيونية والإستعمار على تقديمها للعالم كمشكلة لاجئين ، وليس كمشكلة شعب حرم من وطنه ويريد أن يسترد أرضه ليحيا فيها حراً يصوغ حياته بإرادته . وقارات العالم جميعاً تعرف ظاهرة اللاجئين . والمجتمع الدولى يقدم لها عادة حلا ينحصر فى المعونة والتوطين . ومن ثم كانت الدعاية الصهيونية لا تكف تردد أن الدول العربية تفتعل مشكلة اللاجئين لأنها ترغمهم على البقاء فى مخيمات وتمنعهم من التوطن فى أراضيها الشاسعة ذات الموارد البترولية الضخمة . ثم تتهم الحكومات العربية بالحرص على الإبقاء على تلك المشكلة لأنها تؤجج شعور العداء نحو إسرائيل . وهو على حد قولها المتنفس لكل سخط مرده المشكلات الداخلية فى البلاد العربية . ومنذ أن بدأ العمل الفدائى فى أبسط صوره فى ١٩٥٥ ، بادرت إسرائيل إلى اتهام الحكومات العربية بتدبيره . وتقبل الرأى العام العالمى هذا الكلام بسهولة ، لأن مؤامرة الصمت كانت قد نجحت فى إخراج فلسطين وشعبها من الأذهان . لم تعد نقطة البدء أن هناك شعباً

يناضل من أجل حقوقه المشروعة .

وتجاوزت آثار مؤامرة الصمت هذه الإجرام فى حق شعب فلسطين إلى الإضرار بالقضية العربية كلها . فقد ترتب على التخلص من المشكلة الفلسطينية على هذا النحو ، أن أصبح فى وسع الصهيونية أن تطرح على الرأى العام العالمى كل نزاع فى المنطقة على أنه صدام بين مائة مليون عربى ومليونين فحسب من الإسرائيليين . وهل يستغرب بعد ذلك أن تنجح فى استدرار عطف الملايين من الناس الشرفاء ؟ لقد بلغ من أثر الدعاية القائمة على تصوير الأمور على هذه الصورة أنه بعد سنتين من العدوان ، ومع تسليم إسرائيل نفسها بأنها هى التى بدأت الحرب ، ما زالت أقسام واسعة من الرأى العام العالمى تعتقد أن إسرائيل كانت بالفعل مهددة بغزو يقوم به مائة مليون عربى لإلقاء اليهود فى البحر كما كانت تقول بعض أصوات الدعاية العربية قبل حرب يونية . وابتداء من هذا الفهم للأمور تجد إسرائيل من يبرر عدوانها ، أو على الأقل تجد من « يفهم مخاوفها » وإن كان لا يقر أساليبها فى مواجهتها .

شعب لم يستسلم

واليوم فى وسعنا أن نقول إن أهم ظاهرة إيجابية فى فترة ما بعد يونية سنة ١٩٦٧ هى بروز دور الشعب الفلسطينى . لقد فرضت المقاومة الباسلة على الرأى العام العالمى فرضاً قضية شعب فلسطين . واكتسبت « أزمة الشرق الأوسط » بعداً جديداً يطرح حقوق هذا الشعب الذى يناضل فى ظروف قاسية ، ويبذل أغلى التضحيات فى سبيل حقه فى الحياة فى وطن مستقل . إن الوجود الإسرائيلى ، والتوسع الإسرائيلى ، وكل المخططات الصهيونية تصطدم اليوم ولأول مرة فى كل المحافل الدولية ، بالأمر الوحيد الذى يمسها فى جوهرها وهو حقوق الشعب الفلسطينى .

ويخطئ من يتوهم أن الشعب العربى الشقيق قد استيقظ فجأة ، أو يظن أن نضاله قد انبعث بين يوم وليلة . أو أنه مدين بالعودة إلى الوجود لقيادة معينة أو تنظيم محدد . فنضال شعب فلسطين عريق ومجيد . لقد ظهرت معارضة المطامع الصهيونية فى الأرض المقدسة منذ أن بدأت الهجرة الأولى فى مستهل القرن العشرين . ولكن أهل فلسطين لم يكونوا يملكون أمر أنفسهم ولا يحكمون وطنهم . لقد كانت فلسطين وبقية أقطار الشام جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وبرغم كل أساليب الضغط والإغراء التى لجأت إليها الحركة الصهيونية ، وبرغم كل الفساد المستشرى فى دولة آل عثمان لم يتورط خليفة المسلمين فى إعطاء الصهيونية سنداً للهجرة اليهودية إلى الأراضى المقدسة . كل ما نجحت فيه تلك الجهود هو التساهل « عملياً » فى قبول بعض المهاجرين . ولم يزد عدد اليهود فى فلسطين غداة الحرب العالمية عن ثمانين ألفاً منهم أولئك الذين كانوا يقيمون فى البلادمن قديم؛ولكل ذلك لم تأخذ الأمور طابع الحدة والتوتر . وإبان الحرب العالمية الأولى تبلورت الحركة الوطنية العربية . واتضح أن الإمبراطورية العثمانية فى طريق الانهيار ، وتعلق الوطنيون فى فلسطين بصفة عامة بأمل إنشاء دولة عربية مستقلة كبيرة تضم الجزيرة العربية كلها (فيما عدا عدن) والعراق وما أصبح فيما بعد سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . لا سيما أن بريطانيا على لسان مندوبها الجنرال ما كماهون أخطرت الملك حسين بتأييدها للمشروع بتحفظ وحيد يتعلق بولايتى بيروت وحلب ومطامع فرنسا فيهما . ولكن بعد صدور وعد بلفور من ناحية ، وبدء تقسيم المغانم بين فرنسا وبريطانيا التى ابتلعت كل وعودها للعرب وفرض الانتداب البريطانى على فلسطين من ناحية أخرى ، هب الشعب الفلسطينى يطالب باستقلاله ويستنكر وعد بلفور ويعلن صدوره عن غير ذى صفة وعدم التزامه به . وامتدت إلى فلسطين الموجة الثورية

التى هزت الشرق العربى كله والتى بدأت فى مصر فى مارس ١٩١٩ . واستمر النضال الشعبى مشتعلا فى الأرض المقدسة طوال عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١ . وحاولت بريطانيا كالعادة أن تجمع بين القهر والوعود. وأعلنت عن عزمها على إعداد دستور للحكم الذاتى يمهد للاستقلال . ولما تكشفت الوعود الكاذبة تفجر الموقف مرة أخرى فى ١٩٢٩ . وكان الشعار الأساسى هو المطالبة باستقلال فلسطين . ولكن السنوات العشر التى مرت على الوجود البريطانى كانت قد أرست للهجرة الصهيونية أسساً راسخة ؛ ومنحت لممثليها أوضاعاً متميزة ؛ واستعانت الإدارة البريطانية فى وظائفها بعدد كبير من اليهود . وخرج الصهاينة عن سياسة التحفظ والمسالمة إلى سياسة التعالى والعجرفة ، وكونوا وحدات مسلحة ، وأخذوا يلعبون دوراً مباشراً فى قمع الحركة الوطنية الفلسطينية . فشهدت أحداث عام ١٩٢٩ صداماً مزدوجاً : بين العرب والقوات البريطانية من جانب، وبين العرب واليهود من جانب آخر . وكانت تلك ظاهرة جديدة فى أرض السلام . ولم يفض القمع الذى تعاون فيه الاستعمار بقواته المسلحة مع أولئك الذين كانوا يزعمون الفرار من الاضطهاد حرصاً على الحرية ، إلى تصفية الحركة الوطنية . وهكذا شهد عام ١٩٣٣ تجدداً للنضال الوطنى اتخذ طابعاً عنيفاً بسبب إجراءات القمع البريطانية وأعمال العصابات الصهيونية . ولذلك كانت هبة شعب فلسطين سنة ١٩٣٦ تتميز عن كل الهبات الوطنية المعاصرة لها فى مصر وسورية والعراق بأنها كانت منذ البداية هبة مسلحة تدافع عن الأرض بالدم . وحاول البريطانيون أن يظهروا الأمور على أنها صدام بين العرب واليهود فى فلسطين ، وأن عليهم أن يلعبوا دورا لحكم إن لم ينجحوا فى أن يكونوا حمامة السلام . ولكن الواقع كان مرة أخرى هو تعاون قوات الأمن البريطانية مع الوحدات المسلحة الصهيونية فى تنسيق كامل للقضاء على هبة شعب مطلبه الأول الاستقلال وصيانة أراضيه .

إن عرب فلسطين لم يقبلوا أبداً أن تكون بريطانيا حكماً بينهم وبين اليهود ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن السيطرة البريطانية هى التى مكنت لليهود فى أرض العرب . ولو كانت فلسطين قد حصلت على استقلالها سنة ١٩١٩ لما كانت هناك مأساة ولا اغتصاب .

حقاً لقد كانت هزيمة ١٩٤٨ صدمة رهيبة للشعب الفلسطينى . لقد فقد الجزء الأكبر من أرضه ، وطردت غالبيته من بيوتها ليعيشوا فى المخيمات أو ليشتتوا فى بقاع المعمورة وكأن الصهيونية التى تريد جمع شتات اليهود تحرص على تشتيت الفلسطينيين . وانفضحت قيادات كثيرة منحها الشعب ثقته واختفت من مسرح السياسة . وانهارت المنظمات السياسية التى زعمت لنفسها طويلا شرف تمثيله . ووجد الشعب الفلسطينى نفسه بلا وطن ولا أرض وبدون تنظيم ولا قيادة . لم يكن فى وضع جيش هزم هزيمة مرة ، ولكنه قصر خطوطه وتراجع برغم الخسائر الفادحة إلى مواقع جديدة ، واحتفظ عبر ذلك كله بهيكله التنظيمى الأساسى ومستوياته القيادية بغض النظر عن الأفراد الذين تتشكل منهم . بل وجد نفسه فى وضع جيش هزم ففرت قيادته وانهار تنظيمه وتفرق فلولا وشراذم ممزقة النفس مبددة الطاقة . ولم تمد له الحكومات العربية القائمة فى ذلك الوقت يد المعونة الفعالة التى تساعده على الحفاظ على كيانه الوطنى . كان على هذا الشعب الشهيد أن يبدأ كل شىء من الصفر وفى أصعب ظروف متصورة . كان عليه أن يستأنف النضال من قاع الهزيمة ، وإسرائيل تطارده والحكومات العربية تضيق عليه وقياداته التقليدية مفلسة وروح الانهزام تسرى فى أقسام منه ، والمسكن ولقمة العيش وأبسط اللباس مشكلة تكاد أن تستعصى على الحل بالنسبة للغالبية العظمى من أفراده . إن أى حركة وطنية تضرب مثل هذه الضربة لابد أن تشل لعدة سنوات . وحين تغدو النكسة انهياراً لابد من زمن طويل لإعادة البناء . لكل هذا ليس

مستغرباً أن يخفت صوت الشعب الفلسطيني غداة ١٩٤٩ . وليس في هذا ما يمكن أن يؤخذ عليه أو يؤاخذ به . ومع ذلك فإن عدداً لا يستهان به من المناضلين الفلسطينيين استأنفوا النضال ، متفرقين وفى أشكال جديدة .
لقد اعتقد عدد من المثقفين أن الطريق الأساسى لمقاومة المخطط الصهيونى الاستعمارى الرهيب ليس المقاومة المحلية . وإنما وحدة الشعوب العربية وتكوين دولة كبرى لها من الإمكانيات ما يجعلها فى مستوى الصدام .
وفعلا أسهم عدد منهم بدور إيجابى فى الحركات السياسية القومية التى كانت الوحدة العربية محورها الأساسى مثل حزب البعث العربى وحركة القوميين العرب . وسرعان ما اجتذبت تلك الحركات المئات من الفلسطينيين فى البلاد العربية المختلفة ، ومن ناحية أخرى فرض ضم الضفة الغربية إلى شرقى الأردن على سكانها واجب النضال من داخل إطار الدولة الجديدة والتعاون مع القوى الوطنية فى الضفة الشرقية . وكان لهم دور فعال فى تنشيط العمل السياسى فى المملكة الأردنية وتأكيد الاتجاهات التحريرية والقومية. ولكنهم لم يغفلوا قضيتهم الأساسية ، بل كان كل ما يتعلق بفلسطين وبإسرائيل فى رأس اهتماماتهم .

وبعد فترة وجيزة بدأت فى معسكرات اللاجئين حركة المقاومة ضد إسرائيل فى شكل عمل فدائى . لقد كانت البداية تلقائية وطبيعية . فالشاب الذى يرى والده يشير عبر الأسلاك الشائكة إلى حقل أسرتهم الذى يزرعه اليهود لابد أن يفكر فى المخاطرة باجتياز حاجز الإثم والعدوان ليجنى بعضاً من ثمار الحقل ، أو ليضرب واحداً من المغتصبين . لم يكن اللاجئون فى حاجة لمن يلقنهم مبادئ العمل الفدائى . وإنما كانوا فى حاجة لمن يشجعهم ويساعدهم ويزودهم بالسلاح ويدربهم عليه . وقد وجدوا هذا التشجيع غداة ثورة ١٩٥٢ . وظهر اسم « الفدائيين » لأول مرة بين شباب غزة . وقد رأينا أن إسرائيل تعللت بنشاطهم لتحتل المنطقة المنزوعة

السلاح أولا ، ثم لتبدأ عدوان ١٩٥٦ . ولكن الأمر لم يكن مقصوراً على شباب غزة وحده . بل إن المحاولات المماثلة تمت فى كل المناطق التى تضم اللاجئين . ولكن مصير العمل الفدائى كان يتوقف على موقف كل حكومة عربية فى الظروف المعينة . فأحياناً كان التشجيع والمساندة ، وأحياناً أخرى كان السجن والمطاردة .

وشيئاً فشيئاً أدرك القادة الثوريون فى البلاد العربية ضرورة بروز الشخصية الفلسطينية ، واتضاح دور متميز للشعب الفلسطينى فى النضال ضد الاستعمار والصهيونية ، ومن ثم كانت الدعوة إلى وجود « كيان فلسطينى » . ولكن تلك الدعوة كانت تصطدم فكرياً فى أوساط كثيرة بالفهم القائم على أنه لا حل لقضية فلسطين إلا فى إطار حركة توحيد البلاد العربية . وكانت تلك الأوساط تؤكد ذلك الفهم بحجتين : الأولى أن شعب فلسطين وحده لا يمكن أن يقدر على مواجهة إسرائيل ، والثانية هى أن الرغبة فى إظهار دور خاص للشعب الفلسطينى تعكس عند أصحابها رغبة خفية فى التخفف من المسئوليات التى يفرضها النضال من أجل إنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية . ولذلك شقت فكرة الكيان الفلسطينى طريقها فى بطء . ولم يساعد على تطويرها إلا حرص الفلسطينيين أنفسهم على تكوين تنظيمات متميزة مثل اتحاد عمال فلسطين ، واتحاد طلبة فلسطين ، واتحاد نساء فلسطين . . . إلخ . وأخيراً استجابت الحكومات العربية للفكرة وقرر مؤتمر القمة العربى الأول فى يناير سنة ١٩٦٤ إعطاءها تجسيداً تنظيمياً بإنشاء « منظمة تحرير فلسطين » . ولكن الحكومات العربية لم تتخل بذلك تماماً عن الوصاية على قضية فلسطين . وكان اعتماد التنظيم الجديد على الجامعة العربية (التى تلتزم فى قراراتها بقاعدة الإجماع) ولا سيما فى مجال التمويل يعنى التدخل فى اختيار قيادة المنظمة والتأثير على خطها النضالى . وبالفعل كان الطابع

العام لقيادة المنظمة الوليدة هو حصر الاختيار فى الفئات الاجتماعية التى قدمت فيما مضى معظم قيادات العمل الوطنى الفلسطينى فى فترة ما قبل ١٩٤٨ . كما كان من الميسور لإسرائيل نظراً للارتباط الوثيق بين منظمة تحرير فلسطين والحكومات العربية الأعضاء فى جامعة الدول العربية أن تروج لفكرة أنها صنيعة لتلك الحكومات وليست بحال تعبيراً عن حركة وطنية فلسطينية . ولكن الأمر المؤكد هو أن إنشاء المنظمة كان حدثاً عظيم الدلالة ، كان شهادة بميلاد جديد لشعب فلسطين .

ولكن الميلاد نفسه كان من صنع جيل جديد من الفلسطينيين . فالشباب الذى لم يعش هزيمة ١٩٤٨ وإنما كبر فى وسط ما خلفته من أنقاض هو الذى أعطى العمل الوطنى الفلسطينى شكلا ومحتوى جديدين . إن هذا الشباب لم تدمغه الهزيمة بحيث تضعف فيه روح المقاومة . وله من حماسته ما يجعله يستهين بالمخاطر . وهو كذلك يحس بأنه من المستحيل أن يترك مستقبله ومستقبل وطنه فى يد الغير ، ولو كان هذا الغير البلاد العربية الشقيقة . والشباب الفلسطينى يعيش ويفكر فى عصر صنعت فيه الشعوب المناضلة المعجزات . فالشعب الجزائرى حين أصر على أن يناضل حتى الاستقلال مهما طال أمد النضال ومهما عظمت التضحيات ، انتصر ضد فرنسا ومن خلفها حلف الأطلنطى . ولم يجل فقط قوات احتلال وإنما تخلص من مستوطنين كانوا على أرضه منذ أكثر من مائة عام وبلغوا المليون عدا . وكوبا الصغيرة ذات السبعة ملايين نسمة صمدت أمام عملاق الإمبريالية وحطمت السيطرة الأمريكية على نصف الكرة الغربى المستقرة منذ إعلان مبدأ مونرو . وأخذت تبنى على مرمى مدفع من فلوريدا مجتمعاً اشتراكياً . وشعب فيتنام الذى عانى حرباً ضد فرنسا استمرت تسع سنوات ، لم يتردد فى أن يخوض حرباً جديدة ضد الاستعمار الأمريكى وأن يحطم مخططاته . إن الدرس المستفاد من تجربة حركة

التحرر الوطنى المعاصر هو أن أى شعب يصر على الحرية ويقبل دفع الثمن ويوفر لنفسه التنظيم الفعال والقيادة الثورية لا بد أن ينتصر مهما تكن قوة العدو الاستعمارى . فلماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لشعب فلسطين ؟ لقد حاولت إسرائيل استخدام دعايتها التقليدية فى الزعم بأن العمل الفدائى من صنع الحكومات العربية . وركزت بالذات اتهاماتها على حكومة دمشق فى الفترة السابقة مباشرة لعدوان ١٩٦٧ . ولكن يكذب هذا الزعم أمور كثيرة . فالشعب الفلسطينى كأى شعب سلبت حقوقه لا بد أن يحاول استردادها بشكل أو بآخر ، وبعد فترة تطول أو تقصر . ولا يمكن فى عصرنا الراهن أن يندثر شعب أو تضيع قضيته إلى الأبد . ومن ناحية أخرى بدأ العمل الفدائى ينشط فى أشكاله الجديدة منذ أوائل الستينات ، وقبل قيام الحكم الحالى فى سورية بعدة سنوات . ومن ناحية ثالثة نشأ فى نفس الفترة تقريباً عدد كبير من المنظمات الفدائية فى مواقع متعددة ودون أى تنسيق أو ترابط ، نذكر منها : فتح ، أبطال العودة ، شباب الثأر . . . إلخ . ولكن التكذيب الأساسى لمزاعم إسرائيل كان ولا شك تعاظم العمل الفدائى واتساع نطاقه وتعدد أساليبه واجتذابه لعشرات الألوف من الفلسطينيين بعد هزيمة ١٩٦٧ . فغداة النكسة كانت الحكومات العربية فى البلاد المعتدى عليها تضمد جراحها وتدبر فى عجلة شئونها الداخلية وتحاول الوقوف على قدميها . ومد الاحتلال الإسرائيلى ظله الكئيب على مناطق واسعة فعزل بين بعض الدول العربية وبين الفلسطينيين فى الأرض المحتلة . وكان من شأن ذلك كله أن يفت فى عضد الشعب الفلسطينى ويشيع فى صفوفه روح اليأس . ولكن الذى حدث هو العكس وانبلج نور العمل الفدائى فى وسط ظلمات الهزيمة أملا تلتف حوله قلوب العرب ، وحقيقة ساطعة نبهت الرأى العام العالمى بعد غفلة استمرت عشرين عاماً إلى وجود الشعب الفلسطينى ونضاله من أجل وطن مستقل .

طريق التحرير

لقد نجح الفلسطينيون إذن فى إعادة طرح قضية فلسطين على الرأى العالمى، ووقفوا — بما يبذلون من تضحيات — على طريق التحرر الحقيقى. وكان ذلك حدثاً رائعاً يؤرخ به : وبداية جادة لصراع طويل خاتمته لابد أن تكون فى مصلحة فلسطين إذا ما تزود المناضلون بعدة النضال من جلد وطول نفس ووضوح رؤية وحسن تنظيم. واتخذ النضال الفلسطينى فى المرحلة الحالية طابع العمل المسلح. وحاولت الدعاية الصهيونية مسخه : فنعتته « بالإرهاب ». ولكن كل الشعوب التى قاومت الاحتلال الأجنبى سمعت المعتدين يسمون رجال المقاومة « بالإرهابيين ». ومن ثم لم تفلح تلك الدعاية كثيراً ولا عمرت طويلا. فلجأت الصهيونية إلى التهوين من شأن العمل المسلح والقائمين به، زاعمة أنهم أقلية قليلة لا يعتد بها. ولكن استمرار النضال واتساع نطاقه وانتظام عملياته وخطورة بعض تلك العمليات بددت المزاعم الصهيونية. وفى الوطن العربى لاقى العمل الفدائى تأييداً حماسياً واسع النطاق. ومع ذلك تحفظت إزاءه بعض القوى الثورية بدعوى عدم نضج الظروف للكفاح المسلح، واحتمال عزلة المقاتلين عن الجماهير، وعدم وضوح خطوطهم السياسية. ولكن ظروف الاحتلال العسكرى بذاتها تولد مناخاً مواتياً لأعمال المقاومة، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن ينضج المناضلون بنضالهم الدؤوب ظروف الكفاح ليؤتى العمل المسلح أعظم الثمرات. كما أن التجربة قد أثبتت أن العمل الفدائى قد نجح فى الالتحام بجماهير عريضة، تلتف حوله وتسانده وتضفى عليه طابعاً شعبياً واضحاً. وأخيراً فإن استمرار الكفاح المسلح، واتساع نطاقه، والتحامه بالجماهير، وتزايد عدد القائمين به يفرض على قيادته فرضاً أن تعلن عن مواقف سياسية تزداد تحديداً يوماً بعد يوم، ولا بد أن تنتهى

إلى تشكيل خط سياسى متكامل تستطيع الجماهير بدورها أن تحكم عليه تأييداً أو اعتراضاً أو تطويراً . ومن ناحية أخرى ، برز فى الوطن العربى اتجاه يبالغ فى تمجيد العمل الفدائى ويرى فيه « وصفة سحرية » يمكن بالتوسع فى استخدامها تصفية القاعدة الصهيونية الإمبريالية فى وقت وجيز . وقد تعرضنا فى الفصل السابق لخطأ هذا الرأى وخطر الانزلاق إلى تعلق غيبى بشكل معين من أشكال النضال فى معركة لابد أن تتعدد فيها أشكال النضال وتتشابك بحيث يكمل بعضها بعضاً .ومن ناحية ثالثة ، هناك جوانب فى العمل الفدائى الفلسطينى يعتقد كثير من الثوريين العرب أنها تثير القلق ؛ ولكنهم كثيرا مايترددون فى إثارتها علناً خوفاً على هذا العمل المجيد من أن ينال النقد من عزيمة القائمين به أو من تأييد الجماهير العربية له . ونحن نعتقد أن هذه النقطة تستحق أن نقف عندها قليلا .

إن النتيجة الطبيعية والحتمية لتصدى الشعب الفلسطينى بنفسه لقضية تحريره هى أن تكون للفلسطينيين الكلمة الأولى والأخيرة فيما يتعلق بمستقبلهم وبطرق النضال من أجل هذا المستقبل . فليس من حق أى عربى أن يتكلم باسم فلسطين إلا أهلها . ولا يملك إنسان أن يفرض عليهم أمراً . وعلينا جميعاً أن نحترم هذا الوضع ولا نزج بأنفسنا فى الشئون الداخلية للنضال الفلسطينى . ليس لأحد أن يفرض وصاية من أى نوع على مقاتلين يواجهون بالسلاح العدو الغاصب لأرضهم . فالموقف هنا لا يمكن أن يختلف جوهرياً عن موقف القوى الوطنية العربية من ثورة الجزائر : مساندة كاملة، مع ترك تقرير المصير بيد جبهة التحرير الوطنى وحدها . وكل ما تملكه القوى الثورية العربية الأخرى ، وما يتعين عليها ألاتتردد فى ممارسته، هو النصح والمشورة . وفى ضوء هذا الفهم يمكن أن نطرح على المناضلين الفلسطينيين ما نعتقد أنه فى مصلحة النضال الفلسطينى ، وبصفة خاصة :

١ ــ أشكال المقاومة : لقد نوهنا بأهمية المقاومة المسلحة وبضرورتها فى مواجهة الاحتلال . ولكن النضال المسلح لا يمكن أن يكون الشكل الوحيد للمقاومة . وذلك لأسباب كثيرة . فالعمل المسلح بطبيعته لا يمكن أن يمارسه إلا عدد محدود نسبياً ، أولئك الذين لهم من السن والصحة والاستعداد ما يؤهلهم له . وبالتالى فلابد من أشكال أخرى للنضال يمارسها من لا يستطيعون حمل السلاح . كما أن فلسطين تواجه استعماراً استيطانياً يعمل على طرد الفلسطينيين من أرضهم . ومن ثم فإن الصمود للضغوط والبقاء فى الأرض بأى ثمن شكل أساسى من أشكال المقاومة . ولكل ذلك لابد أن تتعدد أساليب المقاومة . لا بد لقيادتها من فضح مستمر لكل إجراء يتخذه العدو ، وتزويد الجماهير بالشكل المناسب للرد عليه . لا بد من الإلحاح على البقاء فى المناطق المحتلة . بل إنه من الضرورى دراسة الوسائل والأشكال التى يمكن أن يلجأ إليها النازحون للعودة إلى المناطق المحتلة . لقد مارست الصهيونية فى فترات معينة أسلوب الهجرة غير القانونية إلى فلسطين ونجحت فى أن تنقل إلى الأراضى المقدسة أعداداً من المهاجرين لم تكن السلطة البريطانية توافق على دخولها . فالأمر إذن ليس مستحيلا ، ويجب التفكير فيه والإعداد له . كذلك لا بد من ابتكار أشكال متعددة ومتجددة لعدم التعاون مع المحتل وإفساد خططه الإدارية والاقتصادية فى المناطق المحتلة . وليس ثمة حجة لإبراز أهمية الإضرابات والمظاهرات الشعبية كتلك التى شهدتها غزة فى عدة مناسبات . . . وبهذه الأساليب المتعددة يمكن أن يسهم كل فلسطينى بصورة ما فى أعمال المقاومة ، وتلتحم كل الجماهير بالعمل النضالى ضد العدو .

٢ ــ وحدة المقاومة : إنه لمن قبيل التزيد أن نؤكد أن وحدة العمل الوطنى شرط أساسى للانتصار . فتجربة كل الشعوب المناضلة تنطق بهذا المعنى . ولا يكفى فى هذا المجال مجرد التنسيق بين مختلف التنظيمات .

فالتنسيق يمكن أن يفيد مرحلياً فى الحد من سلبيات التفرق وفى التقريب بين المناضلين . ولكن التقاء المناضلين جميعاً فى جبهة واحدة تقود العمل السياسى والعسكرى معاً يفتح أمام العمل الوطنى آفاقاً رحبة من حيث الإمكانيات والفاعلية . وثمة جانب آخر بالغ الأهمية ، إننا نريد جميعاً أن يكون للشعب الفلسطينى القيادة المعترف بها من كل أبنائه ، التى تمثله وتتحدث باسمه دون أن يستطيع أحد التشكيك فى شرعية ذلك التمثيل . ويكفى تدليلا على أهمية ذلك أن ننبه إلى أن من يسمون أنفسهم « اليسار الصهيونى » يقولون الآن إن الدول العربية تتدخل فيما لا يعنيها ويجب أن تنفض يدها من مشكلة فلسطين لأن الشعب الفلسطينى هو وحده الطرف الذى يمكن أن نتفاهم معه ، ثم يضيفون إن هذا التفاهم يصبح ممكناً عندما « تنضج » الحركة الوطنية الفلسطينية وتتضح لها قيادة مسئولة تتمتع بثقة كل الفلسطينيين . وكأن هؤلاء الصهيونيين قد نصبوا من أنفسهم أوصياء على مصالح الشعب الفلسطينى !

ووجود جبهة التحرير الوطنى الجزائرية ونجاحها فى كسب ثقة الغالبية الساحقة من الشعب الجزائرى من فرحات عباس يميناً إلى الشيوعيين يساراً ، هو الذى جعل من الممكن تشكيل حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية لاينازع أحد فى صفتها التمثيلية بحيث أمكن للدول العربية وبعض الدول الصديقة أن تعترف بها قبل تحرير الجزائر . ونحن حين نلح على الوحدة إنما نؤكد مبدأ عاماً ولا نتخيل شكلا معيناً لتلك الوحدة . فالواقع الفلسطينى وإرادة الفلسطينيين وحدهم وظروف النضال هى التى ستحكم فى النهاية الشكل الذى يمكن أن تتخذه الوحدة . ولكننا نعود فنكرر أن القضية من الأهمية بحيث لا يجوز أن تقف فى سبيلها عقبات فى أمور غير أساسية . وهنا يجب أن يكون الشعار هو أن ما لا يدرك كله لا يترك كله . والالتقاء يمكن أن يتم حول خط أساسي للنضال وتبقى

قضايا كثيرة محل خلاف فى الرأى . كما أن توحيد العمل فى المجالات الأساسية لا يقتضى بالضرورة ذوبان كل التنظيمات فى منظمة واحدة .

٣ - دور العرب داخل إسرائيل : ولا يمكن أن تظل الأقلية العربية المضطهدة داخل إسرائيل بمنأى عن حركة النضال الوطنى الفلسطينى . وإذا كانت ظروفها الخاصة لا تسمح بالعمل المسلح ، فإنها مع ذلك أقلية مناضلة ، لم تكف لحظة واحدة عن الدفاع عن حقوقها ، ولها نشاطها السياسى ، كما أنها ترتبط ببعض التنظيمات السياسية أو تنضوى تحت لواء تنظيمات خاصة بها . ولا بد من تنظيم الاتصال بالعرب داخل إسرائيل وتنسيق أشكال النضال بينهم وبين بقية الشعب الفلسطينى وتكليفهم بالمهام التى تتفق مع ظروفهم الخاصة وأشكال النضال المتاحة لهم . وليكن واضحاً تماماً أن النضال الأساسى من أجل وطن فلسطينى مستقل لا يتنافى إطلاقاً مع نضال العرب داخل إسرائيل ضد أشكال الاضطهاد والتمييز العنصرى والاستغلال الاقتصادى التى تفرضها عليهم الصهيونية برغم ادعائها أنهم قانوناً مواطنون فى دولة إسرائيل .

٤ - الثورة الفلسطينية والثورة العربية : وكل ما قلناه عن الدور المتميز لشعب فلسطين لا ينفى أن الثورة الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الثورة العربية الشاملة . والمطالبة بوطن فلسطينى مستقل لا تتناقض مع وحدة النضال العربى ولا مع استهداف وحدة البلاد العربية . بل إن تحرر كل بلد عربى خطوة ضرورية فى سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولذلك فإن استقلال الثورة الفلسطينية بمسئولية النضال الفلسطينى ، يكمله حتما تعاونها الوثيق مع القوى الوطنية والثورية فى كل أرجاء الوطن العربى . ويمكن أن تلعب الثورة الفلسطينية دوراً هاماً فى التقريب بين تلك القوى وأن تكون محوراً للالتقاء . لقد ذكرنا من قبل أن وحدة القوى الثورية العربية يمكن أن تتحقق من خلال بحث استراتيجية النضال العربى ضد الظاهرة



معلمات رام الله يضربن عن الطعام .

الصهيونية الاستعمارية . ومعنى ذلك أن قضية فلسطين بأوسع أبعادها فى قلب مثل هذه المحاولة . ومن ثم تكون الفرصة متاحة للثورة الفلسطينية لتدفع فى طريق الالتقاء والتعاون والتنسيق . ولكن شرط قدرة الفلسطينيين على النجاح فى هذا الدور هو توحيد الصف الفلسطينى . فتفرق حركات المقاومة الفلسطينية يفتح الطريق أمام ارتباط كل منها بهذا الاتجاه أو ذاك من الاتجاهات التى تسود الوطن العربى ، وبذلك تغذى الفرقة وتدعمها بدل أن تناهضها وتقاومها . وهذا الارتباط بالقوى الثورية ضرورة للثورة الفلسطينية . ولكنه لا يعنى بالضرورة تخلى الفلسطينيين عن محاولة تعبئة أكثر ما يمكن من جهود حول قضيتهم العادلة ، أو رفض أى مساعدة عربية حتى ولو جاءت من قوى لا يمكن اعتبارها من قوى التقدم ما دامت تلك المساعدة لا تحد من حرية الحركة اللازمة للثورة الفلسطينية .

٥ ــ الثورة الفلسطينية والقوى التقدمية فى العالم : إن الثورة الفلسطينية ثورة تحرير وطنى ، وبالتالى فهى جزء من ذلك التيار الجبار الذى يلعب دوراً حاسماً فى تشكيل العالم المعاصر ونعنى به حركة التحرر الوطنى التى تهز أرجاء العالم الثالث . وقد نجحت إسرائيل فى التأثير على عدد من الدول المستقلة حديثاً ، وحاولت أن تظهر أمامها فى ثوب الدولة الصغيرة النامية الآسيوية ، التى تملك ناصية التكنولوجيا وتضرب المثل فى التقدم وتستطيع بذل المعونة . ولم تكن تلك الدول ترى من أثر باق من مشكلة فلسطين إلا قضية اللاجئين ، وآسيا وإفريقيا تعرفان فى معظم أجزائهما مشكلات لاجئين . ولا يستطيع رفع النقاب عن وجه إسرائيل الاستعمارى القبيح إلا المناضلون الفلسطينيون أنفسهم حين يطرحون قضية حق شعبهم فى وطنه المستقل . إن الوضع الطبيعى أن تصبح كل حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث حليفاً لشعب فلسطين تؤيده وتناصره ، كما كانت بالأمس تناصر شعب الجزائر ، وكما تساند اليوم شعب فيتنام ، وقضية

التحرر الوطني تلقي التأييد الكامل من القوى الاشتراكية والعمالية فى مختلف أنحاء العالم ، وليس الأمر هنا مجرد تقرير مبدأ وانتظار نتيجته . ولا مجال لإحساس بالمرارة لما نعتقد أنه إهمال أو تقصير فى الاهتمام بقضية شعب فلسطين طوال العشرين عاماً الماضية . ولندرك جيداً معنى وأبعاد التأييد الأممي . إن الثورة لا تصدر . ولا يمكن أن يقوم شعب بعبء النضال محل شعب آخر . إن الأساس فى كل ثورة هو شعب البلد الثائر نفسه . وبقدر ثباته وتصميمه فى النضال وإقدامه على أغلى التضحيات ووضع قضيته وضعها الصحيح ، تتآلف حوله قوى التقدم وتبذل له ماتستطيع من تأييد ومساندة . إن قوى التقدم والتحرر فى العالم لم تأخذ المبادرة لتحرير شعب فيتنام الجنوبية . ولكن حين هب الشعب البطل يناضل بنجاح وصمود فى سبيل حريته وقف إلى جواره إخوته فى الشمال ، ثم التف حول قضيته أوسع تأييد عالمى فى كل أرجاء المعمورة ، حتى داخل الولايات المتحدة نفسها . ومهما يكن من أمر ، فإن من أول الواجبات الثورية تحديد الأعداء وتحديد الأصدقاء ، ثم محاولة عزل الأعداء عن كل تأييد وكسب الأصدقاء والعاطفين على مختلف المستويات . وخير خدمة تقدم للصهيونية والاستعمار تتمثل فى محاولة عزل الثورة الفلسطينية عن بعض قوى التقدم المعادية للإمبريالية .

تصفية آثار العدوان وقضية فلسطين

ويتساءل البعض منذ أن تطورت المقاومة الفلسطينية هل يمكن أن تعنى تصفية آثار عدوان ١٩٦٧ تصفية قضية فلسطين ، أو على الأقل الإضرار بها ؟ ولأول وهلة يبدو هذا السؤال غريباً . فكيف نتصور تناقضاً بين مصالح شعب فلسطين ومصالح الشعوب العربية المجاورة وكلها ضحية لنفس المعتدي ، وكلها هدف دائم لمخططاته العدوانية ؟

ولكن أولئك الذين يتساءلون يقولون إن المقاومة الفلسطينية تنشط بالذات فى تلك الأجزاء من فلسطين التى احتلتها إسرائيل منذ عدوان يونية ١٩٦٧ . وبالتالى فإن انسحاب القوات الإسرائيلية من تلك الأراضى يحرم المقاومة من مسرح عملياتها الوحيد فى الوقت الراهن . ومن ناحية أخرى ، ترتكز المقاومة إلى أراضى الدول العربية الأخرى حيث تنظم مراكز التجمع والتدريب وتقيم قواعد العمليات . ومن يضمن فى حالة تصفية آثار العدوان الصهيونى الأخير استمرار الحكومات العربية المختلفة فى تقديم نفس التسهيلات التى تحصل عليها منظمات المقاومة حالياً ؟

ولا يجدى شيئاً أن يستفزنا مثل هذا التساؤل فنعرض عنه . فالعواطف هنا غير ذات غناء . ولا مجال فى هذا الصراع المصيرى الرهيب ، كما قلنا ، إلا التفكير الهادئ والحساب الدقيق . ونقطة البداية التى تحدد سير التفكير فى هذه القضية هى بدون أدنى شك معرفة كيف يمكن إجبار إسرائيل على الانسحاب إلى حدود ٤ يونية ١٩٦٧ ، بالرغم من إصرارها الواضح على أن تضم أجزاء هامة من الأراضى التى تحتلها ، وألا تتخلى عن بقيتها إلا مقابل أبهظ الأثمان . وكفرض جدلى محض ، يمكن أن نتصور أن هذا الانسحاب يتم نتيجة لإجماع الرأى العام العالمى وضغطه الذى يجد تعبيره فى شكل قرار من مجلس الأمن توافق عليه الدول الأربع الكبرى وتوفر له ضمانات التنفيذ . ونحن نعلم حق العلم أن الرأى العام العالمى منقسم حتى الآن فيما يتعلق بأزمة الشرق الأوسط ، وأن أقساماً هامة منه تعطف على إسرائيل برغم كل شىء . كما نعلم أن قوى الاستعمار العالمى وفى مقدمتها الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية تساند إسرائيل إلى أبعد حدود المساندة ؛ لأنها تريد أن تستغل ظروف نكسة النضال العربى الحالية لتوجه إليه ضربات فى الصميم وتنتزع منا مكاسب أساسية وتعيد غزو بلادنا فى صورة استعمار جديد . ولذلك فنحن لا نطرح

احتمال « الحل السلمى » فى إطار علاقات القوى الراهنة إلا من قبيل الجدل فقط . فقد أدانت بعض منظمات المقاومة مقدماً وبشكل مطلق « أى حل سلمى » . ولهذا فإنه من الضرورى لسلامة الرؤية أن نبحث أثر مثل هذا الحل على قضية النضال الفلسطينى . وأول ما ينبغى التنبيه إليه هنا هو أن إسرائيل ولدت بالعنف وتوسعت بالقوة وعاشت بالإرهاب . فمنذ ١٩٤٧ حتى الآن نجحت إسرائيل باستمرار فى فرض ما تريد بالقوة ؛ وتلك قضية حيوية بالنسبة للوضع الداخلى فى إسرائيل . فأولئك الذين فروا إليها خوفاً من اضطهاد حيث ولدوا ، أو أملا فى حياة أفضل مادياً وأدبياً ، لن يستقر بهم المقام إلا إذا اطمأنوا تماماً لقدرة الدولة الصهيونية على أن تعيش بالقوة ، وأن تتوسع بالتدريج ، وأن ترغم العرب فى النهاية على التسليم بوجودها والاستسلام لسيطرتها الاقتصادية ونفوذها السياسى . ولو أجبرت إسرائيل على الانسحاب دون أن تجنى شيئاً من حرب سنة ١٩٦٧ فإن معنى ذلك أن سياسة القوة أصبحت غير مثمرة ، وأن إسرائيل لن تستطيع التوسع الإقليمى ولن تحقق السيطرة الاقتصادية ، وأنها لن تلعب دور كلب الحراسة فى حماية مصالح الاستعمار . وبالتالى لن يكون بوسعها الاحتفاظ بمستوى المعيشة الحالى . وسيكون لهذا كله آثاره فى وقف الهجرة إلى إسرائيل ، وتزايد الهجرة منها ، وتنبه أقسام من الشعب الإسرائيلى إلى سراب الصهيونية . ومن ناحية أخرى ، لقد أصبح الشعب الفلسطينى بفضل المقاومة ما كان يجب أن يكون دائماً : طرفاً أصيلا لا يملك أحد أن يتحدث باسمه ولا يستطيع أحد أن يتجاهله . فالدول العربية المعتدى عليها لا تملك التنازل عن جزء من أراضيها المحتلة ، وهى من باب أولى لا تملك التنازل عن شىء من حقوق شعب فلسطين لأنها لا يجوز أن تتصرف فيما ليس من حقوق سيادتها . وليس بمقدور أحد أن يفرض على الفلسطينيين أن يكفوا عن

النضال دون أن يستردوا حقوقهم السليبة . بل إن جهود الشعوب العربية المثقلة حالياً بآثار عدوان ١٩٦٧ ستتخلص عندئذ لتلتف حول شعب فلسطين . وسيكون إفلاس سياسة القوة دفعة جبارة لنضال هذا الشعب العظيم .

ولهذه الأسباب بالدقة لن تقبل إسرائيل الحل السلمى . ولو كانت إسرائيل تريد السلام حقاً كما يزعم بعض قادتها أحياناً . لتقدمت بعروض محددة غداة نصرها العسكرى الساحق . ولكنها فى الواقع رفضت كل مقترحات التسوية ، ولم تصدر عن قادتها إلا التصريحات التى تؤكد الجشع الذى تغذيه عجرفة السلاح المنتصر . ولذلك فإن الأمر الذى يبدو اليوم محسوساً هو حتمية الصدام المسلح . والحرب أعنف صور السياسة وأحفلها بالمخاطر . ولذا فإنها تستلزم تقديرات واضحة للأهداف وتحديدات ملائمة للوسائل . وهنا نعود فنكرر أن علاقات القوى على المستوى المحلى : ودون تدخل مباشر من جانب الجيوش الاستعمارية ، لا تجعل من الممكن للعرب أن يسحقوا العسكرية الإسرائيلية بحيث يصبح ميسوراً أن يفرضوا عليها شروط السلام العادل التى تؤمنهم نهائياً ضد الصهيونية ومخططاتها وترد كل الحقوق إلى أصحابها . وإنما الأمر الممكن ، والذى يجب أن يكون ، هو أن تهزم الجيوش العربية جيش إسرائيل وترغمه على التراجع منسحباً من الأراضى التى احتلها فى عدوانه الأخير . وعندئذ يصبح من المتصور أن يصدر مجلس الأمر قراراً بوقف إطلاق النار مع انسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود ٤ يونية سنة ١٩٦٧ ، وأن تنصاع إسرائيل لمثل هذا القرار . ومن ثم يصبح السؤال : هل تستمر الجيوش العربية فى الحرب : ضاربة عرض الحائط بالرأى العام العالمى ، وتواجه الإسرائيليين وهم يقاتلون مستميتين لأن ظهرهم إلى البحر ، وتقبل فتح الباب لتدخل عسكرى استعمارى مباشر تحت شعار حماية إسرائيل من التدمير والإبادة ؟

وبعبارة أخرى هل نتجاوز الحساب الدقيق ، لنقدم على مغامرة نتائجها معروفة مقدماً ؟ فى تقديرنا أن الإجابة يجب أن تكون بالنفى وبصورة قاطعة . ولا ينبغى أن يستخفنا حديث عن التفكير التقليدى والتفكير الثورى . لأن الثورة علم ، والتفكير الثورى تفكير علمى . والثوريون يجرون حسابات دقيقة لا يميزها عن حسابات الاستعمار إلا قدرة القيادات الثورية على تعبئة طاقات الشعوب غير المحدودة . وها هو ذا العدوان الأمريكى يختنق فى فيتنام ، ومع ذلك فالقادة الثوريون هناك لم يترددوا لحظة واحدة فى الجلوس إلى مائدة المفاوضات مع الأمريكيين ، ولم يشترطوا حتى وقف أعمال الحرب بل اكتفوا بوقف الغارات على فيتنام الشمالية . ونحن لا يمكن أن نعترف بإسرائيل . ولا نتفاوض معها ، ولا نوقع معها صلحاً . ولكن هذا ليس معناه الحرب فوراً حتى تزول إسرائيل أو تسلم بحقوق شعب فلسطين كاملة غير منقوصة . لقد قلنا إن النضال طويل ، وإن الظاهرة الصهيونية الإمبريالية بالغة التعقيد ، وإن تصفية القاعدة الاستعمارية الصهيونية رهن باستراتيجية متكاملة متعددة الأساليب تخطط لنضال طويل ومرير .

ولهذا فإننا نعتقد أنه عند نجاح الدول العربية فى تصفية آثار العدوان إثر صدام مسلح ، يجب أن يحقق نضال شعب فلسطين تقدماً جذرياً . وأن يتعاون شعب فلسطين والشعوب والحكومات العربية على ذلك . وهذا التقدم يتمثل فى تقديرنا فى المطالبة بتنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة التى صدرت لصالح شعب فلسطين . وأول هذه القرارات هو حق اللاجئين فى العودة إلى أراضيهم . ويجب هنا أن تتم التعبئة على أساس إصرار الفلسطينيين عند أى استفتاء على العودة ورفض مبدأ التعويض . فالعودة استرداد للأرض ، فضلا عن أنها تعقد الوضع الداخلى فى إسرائيل وتحد من إمكانيات الهجرة إليها . ولكننا نعتقد أيضاً أنه لابد من الإلحاح

على تنفيذ قرار الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ والمعروف باسم قرار التقسيم . إننا لن نقر أبداً مشروعية التقسيم ، ولا يمكن أن نسلم به . ولكننا يجب أن نتمسك فى الحال بما تركه لنا هذا القرار الجائر ألا وهو « دولة فلسطين العربية » . ومرة أخرى يجب أن نتأمل كيف تصرفت الصهيونية . لقد أعلنت قبولها لقرار التقسيم ومع ذلك لم تنفذ منه إلا البند الخاص بإنشاء دولة إسرائيل ، وخرقت بقية البنود قبل الموعد المحدد لتنفيذ القرار (بالعدوان على يافا وعكا وغيرهما من المناطق العربية) وبعد تنفيذه (بضم مناطق واسعة من أرض فلسطين) . ونحن نرفض النفاق . ولا أحد يلزمنا بالاعتراف بمشروعية قرار التقسيم . ولكن من حقنا أن نطالب أولئك الذين أصدروه أن يعملوا على تنفيذه . وأهم ما يترتب على ذلك هو أن تصبح للنضال الفلسطينى قاعدة من أرض مستقلة يتحرك منها ، ويتحرر من أى ضغط خارجى ، أو حتى عربى . يعود اسم فلسطين للوجود على خرائط العالم . ينشأ إلى جوار المقاومة جيش نظامى . تحصل الدولة الفلسطينية على اعتراف دولى وتحاول أن تلعب دورها فى السياسة الدولية وأن تستفيد من تناقضاتها . وتنفيذ قرار التقسيم بحذافيره ، معناه تحرير جزء آخر من أرض فلسطين ، هو ذلك الذى ضمنته إسرائيل فيما وراء القرار المذكور . معناه تغيير ديناميكية الأحداث رأساً على عقب ، فالمبادرة تصبح بيد العرب ، وعرب فلسطين بالذات ، والتوسع الإسرائيلى يتحول إلى انكماش . إنها تكون بداية ضخمة لعودة الأمور للسير فى اتجاه التاريخ . وستكون الآثار الداخلية فى إسرائيل واسعة المدى . فستدرك جماهير عريضة نهاية الحلم الصهيونى الاستعمارى . ولن تستطيع الصهيونية بتعصبها العنصرى أن تعصب أعين الناس هناك عن أن يروا الواقع وأن يختاروا الخيار الحاسم : مغادرة البلاد أو التعايش مع أهلها فى سلام وبرغبة صادقة فى مصير مشترك .

٧

الاعتراف والمفاوضة

معنى الصلح

يواجه كل عربى تتاح له فرصة مناقشة الأجانب فى قضية العرب وإسرائيل بمشكلة يبدو فيها الأجانب عاجزين تماماً عن فهم موقفنا . ويتفاوت تعليقهم على هذا الموقف بين الصمت المؤدب ، والتحفظ ، والنقد اللاذع . وتلك هى مشكلة « الرفض العربى لإسرائيل » الذى جعل منه أحد أصدقاء العرب فى فرنسا عنواناً لكتاب كامل . أو بعبارة أخرى إصرار العرب على موقف : « لا اعتراف بإسرائيل ، ولا صلح معها ، ولا مفاوضة » . وكثيراً ما يقال لنا ، لماذا الإصرار على عدم الاعتراف بإسرائيل؟ ألايعنى هذا الإصرار تبييت النية على العدوان عليها وتدميرها ؟ وكيف ترفضون الصلح ؟ أليس الصلح الشكل الطبيعى لإنهاء الحروب ؟ وهل تريدون أن تعيشوا فى حالة حرب مستمرة مع إسرائيل ثم تشكون بعد ذلك إذا أخذت تلك الدولة أحياناً المبادرة فى العمليات العسكرية ؟ إن مثل هذه المبادرة لا تكون عدواناً جديداً ما دامت الحرب قائمة على كل حال . والطريق إلى الصلح هو المفاوضة . فمنذ وجدت الدول وقامت بينها حروب ،كان الأسلوب للخروج من حرب لم يسحق فيها أحد الطرفين الطرف الآخر هو المفاوضة بقصد الوصول إلى تسوية قوامها تنازلات متبادلة تحل السلام محل الحرب . ويقال لنا إن موقفنا هذا لا تفسره إلا اعتبارات عاطفية ، والسياسة لا تخضع للعواطف ، وإنما للحقائق المادية وحدها . وكثيراً ما يحتار المتحدث العربى فى بحثه عن الرد المقنع على تلك الحجج ، لأنه يكون فى حاجة إلى حجج يقبلها الرأى العام

العالمى . ولا تغنيه تلك التى يمليها الشعور الوطنى العربى وحده . بل إن بعضنا يتأثر بمنطق هؤلاء الأجانب — ولا سيما إذا أداروا الحديث من زاوية العطف على قضايانا والحرص على تقدم بلادنا — فيتساءل ألا يعبر موقفنا هذا عن نوع من سياسة النعامة التى تخبئ رأسها حتى لا ترى الواقع فتظن أن غيرها لا يراه ؟

ولكن هذا المنطق لا يصمد طويلا أمام مناقشة جدية . ويمكن من واقع الحجج المقبولة عالمياً أن ندافع عن موقف تمليه مصالح مادية حالة ومستقبلة أكثر مما تمليه العاطفة . ولنبدأ بمشكلة الاعتراف بإسرائيل . وأول ما يجب إبرازه هنا هو أنه ليس فى أحكام القانون الدولى العام ما يلزم دولة بالاعتراف بدولة أخرى اعترافاً قانونياً شاملا . إن القانون الدولى ، وبصفة خاصة نصوص ميثاق الأمم المتحدة وغيرها من القواعد التى تستهدف إقرار الأمن الدولى ، تحظر على كل دولة أن تعتدى على دولة أخرى فقط ولكنها لا تلزمها بالاعتراف بها . وثمة حالات كثيرة وشهيرة لعدم الاعتراف . فالصين ، وهى تضم خمس البشرية كلها ، لم تعترف بها أغلبية الدول حتى الآن . وبسبب موقف أمريكا — أكبر مدافع عن الاعتراف بإسرائيل — لم يتمكن شعب الصين حتى الآن من أن يحتل مقعده الدائم فى مجلس الأمن . والولايات المتحدة تستخدم كل ما تملك من نفوذ لتمنع دولا كثيرة من الاعتراف بالصين ، كما أنها تفرض عليها حصاراً اقتصادياً شاملا . ومن حقنا أن نرد على الإيطاليين والهولنديين والبلجيكيين . . . إلخ الذين يقولون لنا لماذا لا تعترفون بإسرائيل ؟ بسؤالهم ولماذا لا يحملون حكوماتهم على الاعتراف بالصين ؟ وليست الصين وحدها فى هذا الوضع . ففيتنام الديمقراطية لم تحصل على أى اعتراف ديبلوماسى من الدول الغربية والدول الدائرة فى فلكها . وواشنطون تفاوض هانوى دون أن تعترف بها . وكذلك الأمر فيما يتعلق بجمهورية كوريا

الديمقراطية . بل إن الأمور تصل إلى حد التعنت فى حالة جمهورية ألمانيا الديمقراطية . فحكومة بون تصر على أنها الممثل الوحيد لألمانيا كلها . وتنكر مجرد وجود دولة ألمانيا الديمقراطية . وهى تهدد باسم مبدأ « هالشين » كل دولة تعترف بحكومة برلين بقطع العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية . ومعنى هذا الموقف يتجاوز مجرد عدم الاعتراف إلى التهديد الجدى لأمن جمهورية ألمانيا الديمقراطية وللسلام العالمى . فحكومة ألمانيا الاتحادية لا تسمى الدولة الألمانية الأخرى إلا « منطقة الاحتلال السوفيتى » . وهى ترفع فى نفس الوقت شعار توحيد الأرض الألمانية . والتوحيد بغير التفاهم مع ألمانيا الديمقراطية لا معنى له إلا التوحيد بالقوة . ومع كل ذلك فلم نسمع فى عواصم الغرب موجة من الأصوات التى تطالب بالاعتراف بحكومة برلين . فالموضوع إذن ليس قضية مبدأ يراه القوم ضرورياً لصيانة السلام العالمى ، وإنما هو قضية عطف بارز على إسرائيل ، أو على الأقل انسياق وراء دعاية ذكية تستخدم حججاً ظاهرها الحق والمنطق وباطنها الباطل والعدوان . وعلى ذلك فالعرب لا يخلون بقواعد القانون الدولى حين يرفضون الاعتراف القانونى بالدولة الصهيونية . ولا تثريب عليهم من هذه الزاوية . إن الالتزام الوحيد الذى يفرضه القانون الدولى على الدول العربية هو عدم الهجوم العسكرى على إسرائيل . والأمر الثابت تاريخياً خلال العشرين عاماً الماضية هو أن الجيوش العربية لم تهاجم إسرائيل ، بل على العكس اعتدت إسرائيل على جاراتها العربية ثلاث مرات عدواناً سافراً مركزاً ، بالإضافة إلى المئات من حالات العدوان المحدود النطاق على حدود هذه الدولة أو تلك . ولا بد أن نذكر هنا أنه حتى فى ١٩٤٨ كانت إسرائيل هى البادئة بالعدوان لأن قواتها احتلت مناطق كانت واردة فى قرار التقسيم ضمن أراضى دولة فلسطين العربية قبل تدخل الجيوش العربية . والأمر الذى يجب التنبيه إليه هو أن الشعب الفلسطينى غير ملزم حتى باحترام

أمن اسرائيل . فهو محروم من الوجود الوطنى فى شكل دولة مستقلة تقع فى حقها الالتزامات الدولية . ومن ثم فإن كل طرق النضال مشروعة أمامه. ولا يتصور بحال أن تلتزم الدول العربية بحماية أمن إسرائيل ضد نضال شعب فلسطين . فمثل هذا الكلام سخف لا سند له فى القانون الدولى . وإنما هى تعلات تلجأ إليها إسرائيل لستر نواياها التوسعية وأعمالها العدوانية .

كذلك ليس صحيحاً ما يقال من أن كل حرب لا بد أن تنتهى بمعاهدة صلح . فالحرب التى تؤدى إلى سحق أحد الطرفين المتحاربين تكون خاتمتها إملاء شروط المنتصر . وفى عصرنا الراهن ، ومع وجود التنظيمات الدولية وعلى رأسها مجلس الأمن يمكن أن ينتهى القتال ، بل تنتهى الحرب ، بقرارات دولية ودون معاهدة صلح . وانتهاء الحرب بدون معاهدة صلح ليس أمراً غير متصور . فقد مر ربع قرن تقريباً على انتهاء الحرب العالمية الثانية ولم يتم توقيع معاهدة صلح مع ألمانيا . بل إن هناك خلطاً متعمداً ، تغذيه الدعاية الصهيونية ، بين فكرة السلام والشكل المسمى معاهدة صلح . فالسلام لا يمكن أن يستقر إلا إذا كان قائماً على العدل . وإلا كان هدنة طويلة الأجل يجمع فيها الطرف الذى يعد نفسه مهضوم الحق كل قواه ليستأنف القتال ويسترد حقه أو يتجاوزه ليسلب حق الطرف الآخر . ولنعد لألمانيا مرة أخرى ، وإنما قبل خمسين عاماً ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى . فقد تم توقيع معاهدة صلح هى « معاهدة فرساى » . ولكن تلك الوثيقة كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الشروط والقيود التى فرضت على ألمانيا . والمفاوضات الطويلة التى سبقتها لم تكن بين الحلفاء من ناحية وألمانيا من ناحية ، بل كانت مفاوضات داخلية أجراها المنتصرون فيما بينهم ، وكان موضوعها اقتسام الأسلاب . ولهذا فإن « صلح فرساى » لم يقر السلام فى أوربا . وقد استغلت النازية ما اعتبره الشعب الألمانى تعسفاً من المنتصرين لتفجر حرباً دامية مدمرة بعد عشرين عاماً من توقيع

المعاهدة المذكورة . إن السلام لن يستقر فى الشرق الأوسط إلا إذا كان العدل أساسه . أى إذا قام على احترام حقوق الشعوب العربية وفى مقدمتها شعب فلسطين . وأى معاهدة صلح يتصورها خبير فى القانون الدولى . لن تكون من الناحية الفعلية إلا هدنة طويلة الأمد نسبياً . لأن الشعوب العربية لا بد أن تناضل حتى تحصل على حقوقها . إن أولئك الذين يهمهم مستقبل السلام فى هذه المنطقة من العالم يجب أن يركزوا اهتمامهم على الشروط الموضوعية لإقامة سلام عادل . أما الشكل القانونى فإنه لن يغير شيئاً من حقيقة الأمور . ولدى إسرائيل أسباب محددة تجعلها تصر على المطالبة بمعاهدة « صلح » . فهى بمنطق القرن التاسع عشر تتصور وثيقة يوقعها طرف منتصر وطرف مهزوم فيدفع الثانى ثمن الهزيمة ويجنى الأول ثمار النصر . ويصاغ كل ذلك فى شكل معاهدة دولية . إن الإصرار على « معاهدة للصلح » وليس على إجراءات لتحقيق الأمن والسلام ، يرجع إلى أن إسرائيل تنظر إلى تلك المعاهدة على أنها « كشف تسليم المغانم » . على أن هدف الصهاينة يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير . فهم بإصرارهم على توقيع معاهدة صلح يريدون أن يصيبوا حركة النضال العربى فى صميمها : فى روح الصمود وإرادة المقاومة ورفض التسليم بالأمر الواقع . إنهم يريدون صكاً يسلم فيه العرب بشرعية الاغتصاب ويتنازلون فيه نهائياً عن حقوق شعب فلسطين . وثمة فرق هائل بين التزام الدول العربية باحترام ميثاق الأمم المتحدة وقراراتها وعدم مبادأة إسرائيل بالعدوان ، وبين التسليم بشرعية اقتطاع جزء من الوطن العربى ، وإقامة قاعدة صهيونية إمبريالية تدنس الأرض وتهدد المستقبل . إن التخلى عن الحقوق المشروعة أمام القوة الغاشمة طريق له بداية وليست له نهاية . فإذا تخلينا أمام إسرائيل ، فهل يمكن أن نقاوم بعدها الاستعمار ؟ إن المراد منا هو فى التحليل الأخير التخلى عن إرادة الحرية ، عن حقنا فى تشكيل مصيرنا كما

نشاء، فى بناء وطننا ووحدتنا القومية ، فى رفع مستوى معيشة الإنسان العربى ليستأنف مسيرته على طريق الحضارة بعد أن حرفته السيطرة الأجنبية عنه أمداً طويلا . ومن ناحية ثالثة تريد إسرائيل « بالصلح » وما يعنيه من تصفية لإرادة المقاومة أن تفتح السبيل لما تسميه « علاقات عادية مع البلاد العربية المجاورة » ، وفى مقدمتها العلاقات الاقتصادية . وقد رأينا فيما سبق تصور الصهيونية لتلك العلاقات بين طرف متقدم اقتصادياً يتمتع بمساندة الإمبريالية العالمية ، وطرف فى مرحلة النمو . إن الصلح فى منطقهم تمهيد لنشر نفوذهم الاقتصادى فى المنطقة كلها حتى تحقق إسرائيل السيطرة الاقتصادية التى تحلم بها .

الأمن والتوسع

وبرغم قوة حجتنا كثيراً ما يقال لنا : ولكن من حق إسرائيل أن تشعر بالأمن . وموقف عدم الاعتراف ورفض التوقيع على معاهدة الصلح يحمل فى ثناياه شبهة النية المبيتة على الهجوم على « الدولة اليهودية الصغيرة » . وهذا كلام مردود . فالصين تعتبر — وهى على حق فى ذلك — أن هونج كونج وتايوان (فورموزا) جزء من أراضيها . ولكن لم يكن معنى ذلك أن تحارب الصين بريطانيا وأمريكا لتحرر فوراً تلك الأراضى المقتطعة من جسد الوطن . ويمكن أن نتصور حالات أخرى يتم فيها ذلك التحرر دون قتال : ثورة شعب تايوان ضد الحكم العميل (وهو أمر غير مستبعد ويكفى للتدليل على إمكانه ثورة شعب فيتنام الجنوبية)، سلسلة هزائم يتلقاها الاستعمار الأمريكى فى الشرق الأقصى فتجبره على تقصير خطوطه كما تفعل اليوم بريطانيا حين تسحب بقرار منها قواتها العسكرية من دول لم تطالب حكومتها بالانسحاب البريطانى ، بل إن بعضها — على العكس — يصرخ مطالباً ببقاء جنود جلالة الملكة (مثل ماليزيا) . . . إلخ . فالدول

العربية ترفض الاعتراف والصلح - ولكنها أعضاء فى الأمم المتحدة تلتزم بعدم الالتجاء إلى القوة فى فض المنازعات . وكما ذكرنا قبل قليل كان تاريخ العشرين عاماً المنصرمة تاريخ حروب ثلاث شنتها إسرائيل وكانت جاراتها العربية فيها جميعاً ضحية العدوان . وهذا ما حمل المتحدث الرسمى باسم الجمهورية العربية المتحدة لأن يصرح – حين سأله صحفى أجنبى عن رأيه فى مطالبة إسرائيل بأن تكون لها حدود آمنة – بأن الدول العربية هى التى تطالب بحدود آمنة ، لأنها كانت دائماً ضحية العدوان . وينكشف زيف ادعاء إسرائيل بأن أمنها مهدد إذا تذكرنا الإجراءات التى كانت كفيلة بصيانة ذلك الأمن ، والتى ألغتها إسرائيل بإرادتها المنفردة .

(١) لقد كانت هناك اتفاقيات هدنة دائمة بين إسرائيل وجاراتها العربية وقعت سنة ١٩٤٩ . وأقامت الأمم المتحدة جهازاً من المراقبين الدوليين للسهر على احترام الأطراف المعنية لتلك الهدنة . ولكن إسرائيل ألغت من جانبها تلك الاتفاقيات جميعاً بقرار منها . وكانت حجتها فى ذلك أن الفدائيين الفلسطينيين لم يكونوا يحترمونها . وهى حجة ساقطة . فالفلسطينيون لم يكونوا طرفاً فى تلك الاتفاقيات لأن إسرائيل أهدرت كل حقوقهم وسعت للقضاء على وجودهم الوطنى المستقل وعطلت تنفيذ قرار الأمم المتحدة بإنشاء دولة فلسطينية عربية ، ورفضت أن تتعامل معهم إلا بأسلوب الطرد والقهر . فكيف يمكن أن يلتزم شعب باتفاق لم يوقعه ، بل لم تتح له حتى فرصة التوقيع عليه ؟ إن إسرائيل كانت تنكر على الحركة الفدائية طابعها الفلسطينى الأصيل ، وتزعم أنها من صنع الحكومات العربية . وقد بدد تطور حركة المقاومة غداة هزيمة يونية كل هذه الدعاوى . كذلك لا يمكن أن تلتزم الدول العربية بمحاربة النشاط الفدائى ، فمعنى ذلك أن تقوم الجيوش العربية بحراسة إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى ، وهذا ما يرفضه العقل وقواعد القانون الدولى . إن إخلال

الفلسطينيين « بأمن إسرائيل » ليس له من علاج إلا الإقرار بحقوقهم فى العودة إلى أراضيهم وإقامة دولتهم المستقلة . إن دم الضحية يطارد القاتل ليل نهار . وما دام هناك شعب سلبت حقوقه فهو يطالب بها فليس من أمن أو هدوء إلا بالإقرار بحقه فى الحياة .

٢ ــ كان من ضمن الترتيبات التى اشتملت عليها اتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩ إنشاء مناطق منزوعة السلاح من الجانبين على طول الحدود الإسرائيلية . وواضح أن تلك المناطق كانت تحول دون المواجهة المباشرة بين القوات المسلحة من الطرفين ، وتترك لمراقبى الهدنة فرصة لأداء مهمتهم . ولكن إسرائيل احتلت بالتدريج كل المناطق المنزوعة السلاح وخلقت بذلك ظروف المواجهة المباشرة والتوتر المستمر . ولم يكن فى « تسلل » الفدائيين ما يكفى لتبرير هذا الإجراء . فمقاومته كان يمكن أن تتم بنفس الفعالية فيما وراء المناطق المنزوعة السلاح . أما النشاط الفدائى فى تلك المناطق ذاتها ، فكان بوسع إسرائيل أن تلجأ إلى الأمم المتحدة بشأنه . ولكن هذا كان أمراً غير مقبول بالطبع فى نظر الصهيونية لأنه كان سيثير من جديد مشكلة شعب فلسطين .

٣ ــ وتقرر فى الوقت نفسه تشكيل لجنة توفيق دولية لحسم قضية الحدود النهائية وحل مشكلة اللاجئين . وانعقدت اللجنة بالفعل فى لوزان . ولكن إسرائيل انسحبت منها لأنها لم تكن تريد حل أى من المشكلتين .

٤ ــ قررت الأمم المتحدة سنة ١٩٥٦ وضع قوات طوارئ دولية على جانبى الحدود بين مصر وإسرائيل . وقبلت مصر القرار ونفذته ، فى حين رفضت إسرائيل السماح لتلك القوات بالوجود على أرضها . واليوم حين يدور الحديث حول تأمين حدود إسرائيل ، يكون من الطبيعى التفكير فى قوات دولية على تلك الحدود . ولكن إسرائيل ترفض هذا رفضاً قاطعاً . ولا يبرر

هذا الرفض ما يقال بأن وجود تلك القوات لم يمنع مصر من طلب سحبها فى مايو ١٩٦٧ . فالرد على ذلك واضح وبسيط : لأنه لو كانت تلك القوات موجودة أيضاً على الجانب الإسرائيلى من الحدود لاستمر وجود الأمم المتحدة . وإنما هذا الوجود كان سيحول دون العدوان الإسرائيلى . ولذلك فإسرائيل تحتفظ باستمرار بحرية الحركة فى حين تستنكر أن طالبت مصر بتلك الحرية فى فترة أزمة ، وبعد أن قبلت بقاء قوات الطوارئ أكثر من عشر سنوات . وليس مفهوماً أن تقبل الدول العربية وجود قوات دولية على أرضها مع إصرار إسرائيل على رفض تلك القوات ، لأن معنى ذلك تقييد حرية الدول التى اعتدى عليها أكثر من مرة ، وإطلاق حرية الحركة للمعتدى .

والواقع إذن أنه يمكن ضمان « أمن » إسرائيل دون أى تعديل للحدود . وليس مقبولا أن تحتج القوى الصهيونية بأن حدود إسرائيل ليست مؤمنة طبيعياً . فمرتفعات الجولان تهيمن على مناطق من إسرائيل ، والضفة الغربية تمتد فى بعض المواقع لتكون على مرمى مدفع عادى من تل أبيب . فالرد على ذلك هو أن العرب كانوا من الأصل يرون فلسطين غير قابلة للتقسيم . وأن وجود دولتين فى أرض محدودة بهذا الشكل سيترتب عليه تداخل إقليميهما فضلا عن ضيق كل منهما . ولكن الصهيونية أصرت على التقسيم وخلقت هذا الوضع الشاذ . وليس لها اليوم أن تشتكى مما صنعت يداها . ويكفى وجود قوات دولية لتوفير الأمن الذى تدعى إسرائيل أنها تنشده . ولكن الواقع المرهو أن إسرائيل تحت شعار « الأمن » تريد فرض التوسع . فالمنطق الصهيونى هو أن تضم إسرائيل المناطق التى تراها لازمة لأمنها . وهذا مبدأ مرفوض فى القانون الدولى لأن حقيقته هى التوسع على حساب الدول الأخرى . ويمكن أن نتساءل عند أى خط تعتبر إسرائيل أن الأمن قد توافر لها ؟ لقد ثارت دعاية واسعة حول مرتفعات جولان . ولكن ليو

أشكول تكلم أيضاً عن وجود إسرائيلى فى سيناء لتأمين الملاحة فى خليج العقبة . فالتوسع له منطقه . وليس له حدوده . وهذه الخطط التوسعية هى التى تساعد على فهم إلحاح إسرائيل فى أنه لا سلام بدون مفاوضة مباشرة مع العرب . فما هو موضوع المفاوضة التى تريدها إسرائيل؟ إن السلام يمكن أن يتحقق بمجموعة من الإجراءات يقررها مجلس الأمن ويقبلها الطرفان . وإذا كانت إسرائيل تقبل مبدأ الانسحاب من الأراضى المحتلة كلها ولا تضم منها شيئاً ، فإن قرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ يرضى كل مطالبها الأخرى : حدود آمنة معترف بها ، إنهاء حالة الحرب ، حرية الملاحة فى الممرات المائية الدولية . فماذا تريد فوق ذلك ؟ الواقع أنها لا تريد الانسحاب .وتبغى من وراء المفاوضة المساومة على الأرض المحتلة . بل مساومة كل دولة عربية على حدة لمحاولة ضربها ببعضها البعض . ولا توجد حكومة عربية تستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضى المحتلة . ومن ثم فإن المفاوضات غير ذات موضوع . وموقفنا فى رفضها سليم تماماً . ليس فقط لأن المفاوضة يمكن أن تستتبع الاعتراف القانونى بإسرائيل أو تفضى إلى معاهدة صلح وهى أمور واضح ضررها بالقضية العربية ، وإنما لأن المفاوضة لن يكون لها من موضوع إلا مصير الأرض المحتلة ، وهذا المصير لا يمكن أن يكون محل مفاوضة أو مساومة .

إن من يريد السلام لا تهمه الأشكال التى يتحقق بها . وعلينا أن نفضح حقيقة موقف إسرائيل ، وبيان أن مطالبتها بالمفاوضات ليست رغبة فى السلام ، لأن قرار مجلس الأمن يمكن أن يوفره ، وإنما هى رغبة فى استغلال النصر العسكرى فى توسع إقليمى . ويقول لنا بعض المثقفين ورجال السياسة فى الغرب : لقد هزمتم عسكرياً وعليكم أن تدفعوا الثمن . ونحن نقول لهم : تكلموا لغة واحدة ، فإما إقرار بوجود مجتمع دولى يدين العدوان ومنظمة دولية تعمل على صيانة السلام بإقراره على أسس عادلة

ـ ولا مجال عندئذ لتقدير الأمور بشروط المنتصر وتنازلات المهزوم : وإما سيادة قانون الغابة ـ وهنا نعلن أننا لم ولن نلق السلاح وأن الحرب يمكن أن تستمر ولو مائة عام . فأرضنا واسعة وأعدادنا غفيرة ، ونحن ندرك معنى التاريخ ونعرف أن حركته فى صالحنا .

الوقاية واليقظة

وحتى لا تكون « سياسة نعامة » ، لا يكفى أن نرفض لاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها وعقد الصلح . لا يمكن أن نقنع بتجاهل الوجود الإسرائيلى والانصراف إلى شئوننا الأخرى . وليس هذا فقط لأننا لا يجوز أن نتخلى عن مساندة شعب فلسطين ، وإنما لأن إسرائيل بوضعها الراهن قاعدة صهيونية إمبريالية عدوانية كما سبق أن أوضحنا . ولكن ما يجب الإقلاع عنه هو التفكير السطحى الذى ينم عن نفاد الصبر والذى يتمثل فى القول بأن علينا أن نختار بين حرب شاملة وثورية لتدمير إسرائيل . وبين التعايش معها . كل ذلك التفكير الذى محوره الضيق بالمشكلة والرغبة فى التخلص منها بأى شكل ، ولو كان الشكل الأرجح عندئذ فى ضوء علاقات القوى الحالية ضاراً بالعرب أبلغ الضرر . لقد ذكرنا وكررنا أن الهدف الاستراتيجى للنضال العربى هدف بالضرورة طويل الأمد ، لا يمكن تحقيقه بين يوم وليلة ، ومن ثم فالأمر الذى لا مفر منه هو أنه سيكون هناك تواجد مادى لفترة طويلة نسبياً بين إسرائيل بوضعها الراهن وبين الدول العربية . وسنوضح فى الصفحات التالية ما نرى من واجب العرب صنعه فى تلك الفترة للاقتراب من الهدف المنشود والأسمى . ولكننا نريد أن نؤكد هنا ثلاثة أمور :

١ ـ ضرورة مساندة الدول العربية للمقاومة الفلسطينية ، والتضامن الكامل مع الشعب الشقيق فى نضاله الطويل . وقد سبق أن أوضحنا أن

قضية شعب فلسطين قضية تتضح أكثر فأكثر أمام الرأى العام العالمى باعتبارها قضية تحرر وطنى لابد أن تلتف حولها وتتعاطف معها قوى التحرر والتقدم فى كل بقاع الأرض . ونحن أبناء القومية الواحدة أولى الناس بأداء واجب التضامن والمساندة . ولا تناقض بين تصفية آثار العدوان ومساندة شعب فلسطين كما شرحنا فى الفصل السابق . ونحن نقول بوضوح إن السلام الوحيد الذى يمكن أن يعمر فى الشرق الأوسط هو السلام القائم على العدل . ولا عدل بدون الإقرار بحقوق الشعب الفلسطينى وتمكينه من تجسيد وجوده الوطنى فى دولة مستقلة وعودة اللاجئين إلى ديادهم . . . إلخ. وللمساندة العربية أشكال كثيرة ومتنوعة . ولنا فى تجربة مناصرة الثورة الجزائرية دروس يمكن الاستفادة منها وتطويرها .

٢ ــ دعم المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل . فهدف الصهيونية الخبىء وراء كل حديث عن السلام والصلح والعلاقات الطبيعية هو غزو بلادنا اقتصادياً لحساب الصهيونية والاحتكارات العالمية . ولقد كانت المقاطعة أنجح إجراء اتخذه العرب منذ قيام السرطان الصهيونى فى فلسطين . وعلينا أن ندعمها ونطورها كإجراء وقائى لحماية الاقتصاد القومى للدول العربية . وليكن واضحاً أن المقاطعة لن تؤدى إلى خنق إسرائيل ، فلها من مساندة القوى الصهيونية والإمبريالية فى العالم ما يكفل لها أسباب الحياة ، ولذلك فالمقاطعة ليست إجراء عدوانياً ضد إسرائيل ، وإنما هى قبل كل شىء إجراء دفاعى لحماية استقلالنا الاقتصادى، وصناعتنا الناشئة والسير فى طريق التنمية ورفع مستوى المعيشة . ونحن حين نقاطع الشركات التى تنشئ مصانع فى إسرائيل إنما نفعل ذلك لأن تلك الشركات تدعم الطاقة الحربية ، بالمعنى الواسع للحرب الحديثة ، عند المعتدين الصهيونيين .

٣ ــ اليقظة والقدرة على الردع . ذلك أننا حتى ولو لم نهاجم إسرائيل

فلن نأمن شر عدوانها ، إنها تعمل باستمرار على تعطيل حركة التحرر العربى وتوجيه الضربات لها لشل تقدمها . وهى كثيراً ما تعتدى بتوصية من الإمبريالية العالمية التى تريد حماية مصالحها الاستعمارية المهددة فى الوطن العربى . ولكل ذلك فإن إسرائيل يمكن أن تعتدى فى أى وقت . ومن ثم يجب أن تكون لنا القدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التى تمكننا من رد العدوان ودحره حتى تدرك إسرائيل أنها لا يمكن أن تقوم دائماً بدور « البلطجى » فى المنطقة ، وأن العدوان لعب بنار تحرق أصابع من أشعلها . وبدون القدرة على الصد والردع ستعيش إسرائيل سكرى بخمر القوة ، تعربد بالسلاح أنى تشاء .

الرأى العام الإسرائيلى

ولكن ما أثر ذلك كله على الأوضاع الداخلية فى إسرائيل ؟ إن كل طرف فى صدام مثل ذلك الذى نعيشه مع الصهيونية يحاول دائماً التأثير فى صفوف الطرف الآخر ، ويبذل أقصى الجهد لعزل أقسام من الشعب عن القيادات المتصدية للصدام . فالحلفاء فى الحرب العالمية الثانية كانت لهم دعايتهم الموجهة إلى الشعب الألمانى والتى كانت تدور حول فكرة أنهم يحاربون هتلر والنازية ولا يحاربون ألمانيا والشعب الألمانى . وفيتنام الديمقراطية لها دعايتها الموجهة إلى الجيش الأمريكى الذى يحتل جنوبى فيتنام ويحارب شماليها ، ومحورها عدم العداء للشعب الأمريكى والرغبة فى العيش فى سلام معه . ويوجه عدد من الإذاعات العربية برامج باللغة العبرية ليسمعها الناس فى إسرائيل ؛ أى أن الحكومات العربية ، أو بعضها على الأقل ، لا تيأس من إمكانية التأثير فى الرأى العام الإسرائيلى . ومن ثم لا بد من أن نحدد بوضوح ماذا يمكن أن نقول للجماهير فى إسرائيل لنعزلها عن القيادات العنصرية الرجعية الاستعمارية

المغامرة التي تقود تلك الجماهير - في المدى الطويل - إلى أسوأ مصير ؟

يعتقد البعض - من أصحاب الفكر العنصري - أن هذا السؤال غير وارد . فاليهودي عندهم شرير بالطبيعة ومن العبث بذل أي جهد لتغيير موقف يهود هم بالضرورة فاسدون مفسدون في الأرض - لا ضد العرب وحدهم - بل ضد الاشتراكية السوفييتية والاحتكارية الأمريكية . . ! فأية جدوى هناك في محاولة التأثير في الرأي العام في إسرائيل ؟ ولكن أصحاب هذا الفكر المشين هم والحمد لله قلة قليلة في وطننا العربي . وقيم الحضارة العربية وتقاليد العرب التاريخية تدين مثل هذا الفكر . وهو لا يجد صدى إلا في أشد المجتمعات العربية تخلفاً . وهي ذات أثر محدود للغاية في السياسة العربية وفي مقاومة مخططات الصهيونية والاستعمار .

وهناك رأي آخر أكثر « عصرية » يقول إن الصدام الدامي الذي تشهده الأرض العربية هو صدام قومي تختفي أمامه كل القضايا الطبقية ، وبالتالي تنصهر فيه وحدة الشعوب والتيارات عند الطرفين . ويقول بعض أصحاب هذا الرأي إنه لو كانت الجمهورية العربية المتحدة بلداً رأسمالياً ، لتعرضت مع ذلك للعدوان الإسرائيلي . فالنظام الاجتماعي لا صلة له بالموضوع . ويضيفون ، من الناحية الأخرى ، أن إسرائيل مجتمع مصطنع ليس له وجود طبيعي وبالتالي لا تتبلور فيه طبقات ولا يظهر صراع طبقي . وأول نقد نوجهه لهذا الرأي هو أنه يتضمن التسليم بوجود قومية يهودية ، وهذا التسليم يجافي الواقع ولكنه يخدم إلى أبعد الحدود الفكرية الصهيونية كما سبق أن أوضحنا . والنقد الثاني يتعلق بتجريد مفهوم القومية من كل محتوى اجتماعي . إننا نؤمن بأن القومية بمعنى رغبة كل أمة في أن تعيش مستقلة وموحدة وأن تتقدم بين الأمم ، من أعظم القوى التي لعبت دوراً حاسماً في تشكيل عالمنا المعاصر ، وما زالت تلعب كل هذا الدور . ولكن حين تحاول بعض الدوائر الحاكمة المستغلة أن تستخدم الشعور

القومى فى تعصب شوفينى يبرر غزو الشعوب الأخرى والسيطرة عليها تصطدم بمعارضة حادة داخل بلادها . فالفرنسيون الذين عارضوا حرب الجزائر وأيدوا نضال الشعب الشقيق من أجل استقلالها لم يكن شعورهم بالقومية أقل من أنصار « الجزائر فرنسية » من المتطرفين واليمنيين والفاشيين . والألمان الذين حاربوا النازية . كانوا أكثر حباً لوطنهم من عصابات هتلر الإجرامية . والمثقفون الأمريكيون الذين يعارضون حرب فيتنام يعلون شأن أعظم قيم الحضارة التى قامت عليها الولايات المتحدة ... إلخ.

ومن ناحية ثالثة ، ليس صحيحاً أن النظام الاجتماعى لا أثر له فى الصدام الذى نعيشه . حقاً إنه من وجهة نظر الصهيونية التوسعية التى تريد ضم مناطق جديدة ، لا يمكن التردد فى الاستيلاء على أرض لأن نظامها الاجتماعى متخلف وحكامها موالون للاستعمار ، بل على العكس ربما سهل هذا للصهاينة الأمور . ولكن إذا نظرنا إلى القضية من زاوية المصلحة العربية نجد أن المجتمع الإقطاعى المتخلف لا بد أن يكون عاجزاً عن مقاومة عدوان الصهيونية وتوسعها . كما أن ارتباطاته بالاستعمار تحول دونه ودون القيام بدور فعال فى مقاومة إسرائيل . إن حرصنا على أعلى درجة ممكنة من الوحدة بين العرب فى الظروف الراهنة يمنعنا من ضرب الأمثلة من واقعنا المر . ويكفى أن نشير إلى أن إصرار بعض النظم على الاعتماد فى التسليح على أمريكا وبريطانيا يشل من قدراتها العسكرية . كما أن المصالح البترولية تقيد حركة البعض الآخر . كذلك البلد العربى الذى يتبنى الرأسمالية لابد أن يرتبط بالاستعمار . وقد عرضنا طويلاً لعلاقة إسرائيل بالاستعمار . ولهذا فلابد أن تكون مقاومة مثل هذا البلد لمخططات الصهيونية والاستعمار محدودة ومحصورة . ومرة أخرى لا داعى لضرب أمثلة تعرفها الشعوب العربية جيداً . ويجب ألا نهدر بأنفسنا حقيقة اقتنعت بها أقسام واسعة من الرأى العام العالمى وهى أن العدوان الإسرائيلى استهدف

فى رأس أهدافه ضرب النظم التقدمية فى البلاد العربية . وأخيراً فإنه من العبث أن ننكر وجود صراع طبقى فى إسرائيل . فهذا كلام ينافى الواقع ويجافى حقائق العلم . فأى مجتمع حتى ولو كان ذا طابع مؤقت لابد أن ينشأ فيه صراع طبقى ما دام هناك مستغلون وضحايا للاستغلال . وشعور الإسرائيليين السائد هو أنهم يقيمون مجتمعاً دائماً وليس موقوتاً . ونفى الصراع الطبقى داخل إسرائيل ينتهى فى التحليل الأخير إلى نفى وجود ظاهرة استغلال اجتماعى واقتصادى هناك . وهكذا يصل الأمر بأصحاب هذا الرأى إلى تأييد الصهيونية فى أكبر أكاذيبها ألا وهو ادعاؤها أن المجتمع الإسرائيلى اشتراكى ، أو أنه لا يعرف الاستغلال . ومن المهم أن ننبه هنا إلى أن تصرف الجماهير تصرفاً ينافى مقتضيات الصراع الطبقى لا ينفى حقيقة وجود ذلك الصراع . فعشية الحرب العالمية الأولى أعلنت الأحزاب الاشتراكية الأوربية أن الحرب التى يعد لها حرب استعمارية لا مصلحة للشعوب فيها ، وقررت أنه إذا اندلعت الحرب فلا بد أن تقاومها الشعوب والحركات العمالية وأن تتآخى عبر خطوط القتال . ولم ينفذ هذا القرار إلا الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى . ولم يكن معنى ذلك أن الصراع الطبقى لم يكن موجوداً فى ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا . فمن الممكن دائماً أن يوجد فرق بين واقع الصراع الطبقى وبين أشكال التعبير عنه .

ويقول بعض الاشتراكيين العرب إن المواطن الإسرائيلى رجعى بالضرورة . لأنه لو كان يهودياً تقدمياً لأدان الصهيونية ولرفض الهجرة ولبقى فى موطنه الأصيل يناضل إلى جانب القوى التقدمية فيه . وهذا تبسيط شديد للأمور ، ونفى كامل لآثار التضليل واحتمالات انخداع الجماهير . وبهذا المنطق كان يتعين اعتبار الأغلبية الساحقة من الألمان رجعيين أصلاء ، لأن الواقع التاريخى هو أن الحزب النازى قد حصل ، لعدة سنوات ، على تأييد شبه إجماعى فى ألمانيا ، وكان معارضوه قلة

معدودة . كما أن هذا الرأى يغفل تماماً العوامل التى ساعدت فى أوربا الدعوة الصهيونية ، وفى مقدمتها عمليات إبادة اليهود والتنكيل بهم فى ظل سيطرة هتلر على أوربا كلها . وأخيراً فإن هذا الرأى يفترض الجمود المطلق فى مواقف الناس الاجتماعية والفكرية . فصاحب الفكر الرجعى يستحيل أن يتطور تفكيره إطلاقاً ، بل لابد أن يظل رجعياً إلى الأبد ..! وهذا سخف يستغرب أن يروج له قوم عاشوا هم أنفسهم تجربة التطور الفكرى وتبنوا الاشتراكية فى نهاية مسيرة سياسية طويلة كانت بدايتها عند البعض منهم على الأقل مواقف رجعية بل فاشية أحياناً . وأخيراً هم ينظرون إلى التقدمية نظرة مجردة منبتة الصلة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، متناسين أن الأصل فى الفكر الاشتراكى أن الناس يميلون إلى الأفكار التقدمية أساساً لأنهم ضحايا استغلال اقتصادى أو قهر اجتماعى أو قومى أو ثقافى . والمجتمع الإسرائيلى حافل بأشكال من القهر لا تنفرد الأقلية العربية بتحمل آثارها .

وفى الطرف المقابل تماماً ، نجد رأياً شائعاً بين صفوف اليسار الأوربى وله أصداؤه فى الوطن العربى يقول إن حل القضية كلها يكمن فى التحليل الأخير فى انتصار القوى الاشتراكية داخل إسرائيل وتصفيتها للأيديولوجية العنصرية وللتبعية الاستعمارية وإقبالها على التعاون مع الشعوب العربية. وهنا أيضاً نصطدم بقدر كبير من التبسيط والتجريد . وفى تقديرنا أن إسرائيل ، كأى مجتمع ، بها صراع طبقى ، وأن مصالح الكادحين ضحايا الاستغلال هناك تتفق فى النهاية مع مصالح الشعوب العربية . فالمصلحة المؤكدة لكل شعوب العالم هى تصفية الاستغلال بكل صوره . ولكن هذا الصراع الطبقى لا يجد فى الواقع اليومى تعبيراً صادقاً عنه . بل إن هناك عوامل كثيرة تطمس هذا الصراع ، كما أن القيادات التى تمثل الفئات والطبقات العاملة تضللها وتقودها فى طريق

العنصرية والتبعية للاستعمار . وأهم عامل فى طمس معالم الصراع الطبقى هو العنصرية . وتجربة الأمم أمامنا غنية بالدروس . ففى الجزائر كان فقراء المستوطنين الفرنسيين فى معظم الأحوال أشد عداء للثورة الجزائرية من كبار الاحتكاريين . ومنهم وجدت منظمة الجيش السرى العدد الكبير من الأعضاء الذين حولتهم إلى قتلة ومخربين . وفى الولايات المتحدة الأمريكية نجد صغار المزارعين البيض أعنف فى موقفهم من السود من الاحتكارى الكبير روكفلر ، وهم الذين يشكلون قاعدة منظمة « كو — كلوكس — كلان » الإرهابية المتخصصة فى قتل السود أو إحراقهم أحياء . وفى إسرائيل يحس المواطن العادى بأنه مدين بكل شىء للتنظيم الصهيونى العالمى . فالصهيونية هى التى أقامت دولة إسرائيل . وهى التى ساعدت على الهجرة ووفرت للمهاجر الأرض أو العمل . كما أنها تقنعه بأنها ردت إليه كرامته كإنسان وخلصته من ذل استمر قروناً ، وتحميه اليوم من خطر الإبادة أو الطرد من أرض الميعاد . ولذلك فإن نفوذ الصهيونية واسع وعميق . ويساعد على ذلك ما اتسمت به الحركة الصهيونية من مرونة جعلها تستوعب فى أحضانها اتجاهات سياسية مختلفة ، بما فى ذلك أولئك الذين استعاروا من الماركسية بعض أفكارها وتصدوا لمهمة مستحيلة هى التوفيق بينها وبين الصهيونية . لكل ذلك ما زال للموقف العنصرى الغلبة والتقدم على الموقف الطبقى . وتلك حقيقة يجب أخذها فى الحسبان . ومن ناحية أخرى يؤدى الوضع الاقتصادى الشاذ لإسرائيل إلى حرف الصراع الطبقى عن مجراه الأصيل . فالعامل الإسرائيلى ضحية استغلال بلا شك . وهذا كان من شأنه أن يحمله على الصراع ضد مستغليه . والشركات الكبرى ذات صلات استعمارية . ومن ثم كان من المنطقى أن يمتد نضال العمال فى اتجاه التحرر من السيطرة الاقتصادية الاستعمارية . ولكن العامل الإسرائيلى يدرك أن هذه

المصانع أقيمت دون سند مادى من موارد البلاد ودون ضرورة اقتصادية لأصحاب رأس المال . وأنه إذا تجاوز نضال العمال حدوداً معينة يمكن أن يسحب الرأسماليون الأجانب أموالهم . بل يمكن لرأس المال اليهودى نفسه أن يهرب إلى الخارج فينهار الاقتصاد الإسرائيلى ويجد العامل نفسه فى بطالة دائمة ويتعين عليه مغادرة أرض الميعاد ليجوب العالم مرة أخرى سعياً وراء العمل . ومن ثم فإنه حتى بين العمال الإسرائيليين يسود شعور بضرورة المحافظة على العلاقة بالدول الاستعمارية وبالاحتكارات العالمية . ويغذى هذا الشعور بلا شك الدعاية الصهيونية التى تلح على أنه بدون العلاقات الخاصة مع الاستعمار الغربى يدمر العرب إسرائيل ويهلكون الحرث والنسل . والطبقة العاملة الإسرائيلية ما زالت محرومة من تنظيم نقابى سليم يدافع عن حقوقها لأن الهيستادروت ليس اتحاداً للنقابات وإنما اتحاد للعمل على الطريقة الفاشية يضم العمال وأصحاب الأعمال ويمارس نشاطاً رأسمالياً واسعاً يتمثل فى امتلاك « الكيبوتز » وكثيراً من المصانع والمحال التجارية . والأحزاب « العمالية » أحزاب صهيونية نقطة البدء فى تفكيرها موقف عنصرى . وخطوطها السياسية ليست إلا تنويعات على لحن واحد . ولا يشذ عن هذا الوضع إلا حزب « راكاح » وهو الحزب الشيوعى العربى اليهودى الذى يقوده ماير فلنر وتوفيق طوبى . فهو يدين الصهيونية والعدوان والحروب التوسعية . وليس فى إسرائيل طبقة من الفلاحين الفقراء بالمعنى المفهوم . وإنما هناك مزارعون أعضاء فى الكيبوتز معظمهم لم تكن له صلة بالزراعة قبل الهجرة . مرتبطون بالهيستادروت ، خاضعون فى أحيان كثيرة للجيش الإسرائيلى ، يعيشون حياة هى أقرب إلى حياة المخيم العسكرى منها إلى حياة الفلاح .

ولكل ذلك فإن القوى التى تعادى الصهيونية والاستعمار داخل إسرائيل هى اليوم محدودة للغاية ، تكاد تنحصر فى حزب راكاح وبعض مجموعات

ضيقة من المثقفين ، وأثرها على الجماهير - وبالتالى على السياسة الإسرائيلية ضعيف بلا شك . ولكن علينا أن نحيي شجاعة موقفها ، وأن نشجعها بأن نؤكد أنها تسير فى الطريق السليم . وهنا لابد من جهد دعائى ينفى كل الاتجاهات العنصرية ويوضح أننا لا نريد القضاء على اليهود كأفراد ولا حتى على حقوقهم الإنسانية المشروعة ، وإنما نناضل ضد وضع إسرائيل كقاعدة صهيونية استعمارية . ولنقل بصراحة فى هذا المجال منعاً لكل تضليل أو بلبلة ، إننا لا نعد بين التقدميين إلا الإسرائيليين الذين يدينون العدوان ويطالبون بانسحاب القوات المعتدية ويقرون بحقوق شعب فلسطين ، ويستنكرون جوهر الفكر الصهيونى ألا وهو تحويل إسرائيل إلى وطن لكل يهود العالم على حساب شعبها العربى والشعوب المجاورة . وسيؤتى هذا الجهد الدعائى ثماره إذا دعمته أعمالنا النضالية . فحين ننجح فى ضرب القوة العسكرية لإسرائيل وتبديد أحلام فرض الإرادة بالقوة ، وحين نجبر القوات الغازية على الانسحاب ، وحين يتعاظم نضال الشعب الفلسطينى لابد أن ترتفع الغشاوة عن عيون جماهير واسعة فى إسرائيل فتعيد التفكير فى كثير مما تعتبره اليوم من المسلمات . وعندئذ يمكن أن ينمو اتجاه تقدمى فى إسرائيل .

٨

الحرية والاشتراكية والوحدة

تصفية الاستعمار من الوطن العربى

وفيما وراء كل الإجراءات العاجلة (إبراز دور الشعب الفلسطينى ، تصفية آثار العدوان ، محاصرة إسرائيل) يظل العمود الفقرى للاستراتيجية العربية فى مواجهة مخطط الصهيونية والإمبريالية هو بناء الوطن العربى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً . لقد أصبح من قبيل التكرار القول بأن العدو استفاد من ضعفنا أكثر مما اعتمد على قوته . كما أن لقوة العدو عناصر يجب تحليلها وفهمها وإعداد ما يقابلها فى الوطن العربى .

وحجر الزاوية فى بناء بلادنا هو تصفية الاستعمار ، هو القضاء على مصالح الإمبريالية ونفوذها فى كل شبر من الأرض العربية . وليس هذا الكتاب مجال الحديث المطوّل عن الإمبريالية وجرائمها . ونحن من واقع تاريخنا نعرف ما صنع الاستعمار بنا . ونحن نقف فى وضوح وصراحة ضد أساليب الاستعمار الجديد ، ونرفض تماماً كل الدعاوى التى تروّج له ابتداء من تلك التى تزعم أن الاستعمار قد اختفى من العالم إلى تلك التى لا ترى ضيراً — بل ربما رأت خيراً — فى نشاط الشركات الاحتكارية أو فى وجود القواعد العسكرية الأجنبية . ولكن ليس هنا مقام التدليل على حقائق تؤمن بها الغالبية الساحقة من الأمة العربية ، ولا يجادل فيها إلا نفر قليل بدافع من المصلحة الشخصية أو الطبقية أو لقصر فى النظر يصل إلى حد فقدان البصيرة . وإنما نذكر بأن التقدم الاقتصادى

والاجتماعي والثقافي ودعم القوة العسكرية والسير في طريق الوحدة القومية ، أمور غير متصورة إلا في إطار التخلص من السيطرة الإمبريالية ونفوذها ، تلك الإمبريالية التي مزقت أراضينا ، وفرقت صفوفنا ، ودعمت أكثر القوى الاجتماعية تخلفاً بين ظهرانينا ، وحرصت على أن نبقى مصدراً للمواد الأولية اللازمة لصناعتها وسوقاً لمنتجاتها الصناعية ومرتعاً لرؤوس أموالها الجشعة ، وعملت ما وسعها الجهد على أن يستمر التخلف الحضاري في أرض الحضارات . إن التحرر من الإمبريالية هو قبل كل شيء استرداد لحرية الإرادة الوطنية لتبني الشعوب العربية مستقبلها على النحو الذي تبتغيه.

ولقد عرضنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب لعلاقة إسرائيل بالاستعمار . فقلنا إن الصهيونية في ذاتها ظاهرة استعمارية تشكل جزءاً لا يتجزأ من الإمبريالية العالمية ، وبينا دور الاستعمار في إنشاء إسرائيل ودعمها بكل أشكال الدعم . كما أوضحنا أن إسرائيل تمثل في نظر الإمبريالية التجسيد المادي للوجود الغربي الاستعماري في قلب الوطن العربي ، وتقوم في نفس الوقت بدور « الانكشارية » في حماية المصالح الإمبريالية في البلاد العربية . ولكل هذا كانت إسرائيل في التحليل الأخير قاعدة عدوانية للصهيونية والاستعمار . ولذلك فإن النضال ضد الاستعمار والنضال ضد إسرائيل وجهان متلازمان لا يمكن بحال الفصل بينهما . وثمة أدلة إضافية تؤكد هذا المعنى الأصيل . فمن المعروف أن القواعد العسكرية الأجنبية في البلاد العربية أسهمت بطريقة أو بأخرى في عدوان ١٩٥٦ الثلاثي ، وكذلك في عدوان ١٩٦٧ . فكيف نتصور أن ندخل في صدام مسلح مع إسرائيل اليوم أو غداً دون أن نضع تقديراً لاحتمال استخدام تلك القواعد مرة أخرى ؟ وبالمثل كيف نعتمد اعتماداً كلياً في التسليح على الدول الغربية ، وعلى أمريكا وبريطانيا بالذات ، وهي تعلن بوضوح أنها تبيعنا السلاح — وهذا مصدر ربح لها — بشرط أن تكون قوة إسرائيل

العسكرية أكفأ من مجموع القوى العسكرية للدول العربية ؟ ! وكيف يمكن أن نربط اقتصادنا كله باحتكارات عالمية ضالعة مع الصهيونية ؟
وعبثاً أن نعود فنظن أن تأييد الدول الاستعمارية لإسرائيل مرده نفوذ اليهود فى تلك الدول . فهذا ما تكذبه تصريحات المسئولين الرسميين فيها . كما أن اليهود موجودون فى بلاد أخرى مثل الاتحاد السوفييتى ولم يكن لهم نفس الأثر . أما إذا كان المقصود هو النفوذ الصهيونى ، فإن الصهيونية ذاتها حركة استعمارية، هى جزء لايتجزأ من الإمبريالية العالمية . وكل حديث عن النفوذ الصهيونى يجب أن يكون المقصود به نفوذ مجموعة إمبريالية فى إطار الإمبريالية العالمية تجمعها بها المصالح الأساسية ولا تفرقها إلا تناقضات ثانوية .

إن كل قوة للاستعمار العالمى فى أى ركن من الوطن العربى هى فى الحال أو الاحتمال قوة لإسرائيل . وليس هذا مقصوراً على القوة العسكرية فقط ، ولكنه يصدق أيضاً على مراكز الاستعمار الاقتصادية . فلا ينبغى أن يخفى على أحد ، مثلا، أن جزءاً لا يستهان به من الأرباح التى تحققها الاحتكارات البترولية من الثروة العربية يؤول إلى الصهيونية فى شكل أرباح واكتتاب فى سندات الدولة الإسرائيلية وهبات خالصة ...إلخ . وللولايات المتحدة القدح المعلى فى هذا المضمار . فهى السند الرئيسى لإسرائيل تمدها بالمال والسلاح وتساندها بالقواعد العسكرية وبالأسطول السادس . وهى فى هذا لا تصدر فقط عن اعتبارات محلية تتعلق بأوضاع منطقة الشرق الأوسط ، ولكنها تستوحى استراتيجيتها العالمية . فقد تصدت واشنطون لتقوم بدور الشرطى العالمى فى الدفاع عن « العالم الحر » ضد حركات التحرر الوطنى والتغيير الاجتماعى فى مختلف بقاع الأرض . وبالتطبيق على هذا المبدأ تسعى الولايات المتحدة للحلول محل كل دولة استعمارية يتقلص نفوذها وتضطر إلى الانسحاب . فبعد هزيمة فرنسا فى

فيتنام واضطرارها إلى الانسحاب سنة ١٩٥٤ من الهند الصينية سارعت أمريكا للحلول محلها . وفى سنة ١٩٥٧ ظهر « مشروع أيزنهاور » الشهير الذى أعلن أن انسحاب بريطانيا وفرنسا وتراجع نفوذهما عقب عدوان ١٩٥٦ قد ترك فراغاً فى منطقة الشرق الأوسط يتعين أن تشغله أمريكا . وكان تدخل الأسطول السادس فى لبنان سنة ١٩٥٨ تطبيقاً بليغ الدلالة لتلك السياسة . وإسرائيل فى نظر أمريكا هى القاعدة التى ترتكز إليها فى مد نفوذها فى المنطقة ، لأنها المخفر الأمامى للاستعمار الأمريكى فى قلب الوطن العربى . وإذا كان دور بريطانيا فى هذا المجال قد أصبح مفضوحاً لا يحتاج إلى معاودة التذكير بتاريخها فى صنع إسرائيل ، فإن الدور الهام الذى لا تسلط عليه أضواء كافية هو ذلك الذى تقوم به ألمانيا الغربية . لقد قدمت حكومة بون من المال والسلاح لإسرائيل بالمجان ما لم تقدمه أى دولة أخرى . « فتعويضات » ألمانيا الغربية لإسرائيل هى فى حقيقتها هبات تجاوزت قيمتها كل ما حصلت عليه الدولة الصهيونية من منح أمريكية وتبرعات جمعتها المنظمات الصهيونية . وتمثل جزء أساسى من تلك التعويضات فى أسلحة فتاكة تقدمها تلك الدولة التى لا تستحى مع ذلك من ادعاء صداقتها للعرب . ومن خلال الشركات الألمانية العاملة فى البلاد العربية تنشط الجاسوسية الإسرائيلية . فضلا عما تقدمه المخابرات الألمانية من خدمات لمخابرات إسرائيل تكاد تفوق تلك التى تقدمها لها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وكل هذا أمر منطقى تماماً ، لأنه يندرج تحت فكرة اعتبار الاستعمار الغربى لإسرائيل تجسيداً لوجوده فى أرض العرب وقاعدة أمامية «للعالم الحر» . ويجب أن نرتب نحن هذا على الواقع نتيجة رئيسية ألا وهى أن تصفية كل موقع استعمارى فى بلادنا هى ضربة موجهة إلى إسرائيل . بل أكثر من هذا ، إن قواعد النضال السياسى ، كقواعد العمل العسكرى ، تقتضى أن نوجه ضرباتنا للعدو فى أضعف مواقعه .



ولا شك أن إسرائيل بقدراتها العسكرية هى أقوى مواقع الاستعمار . ولذلك فإن حصر النضال العربى فى نطاق النضال ضد إسرائيل وحدها معناه مواجهة العدو فى أقوى مواقعه وإهمال نقاط الضعف فى خطوطه . وسلامة النضال العربى ونجاحه تتوقف على مقدرتنا فى أن نصفى أولا بأول أضعف المواقع الاستعمارية . ولذلك فإن النضال من أجل الاستقلال الكامل لبقية الأقطار العربية وتصفية القواعد العسكرية الاستعمارية يجب أن تكون فى قمة جدول أعمالنا . فتلك أهداف ممكنة التحقيق فى مستقبل قريب ، وآثارها فى علاقات القوى فى المنطقة بالغة الأهمية .

وتلعب إسرائيل من جانبها دور « الانكشارية » فى حماية المصالح الاستعمارية . فهى تستنفد جزءاً ضخماً من طاقات النضال العربى ، وكثيراً ما تعتدى للإطاحة بالنظم المعادية للإمبريالية ، وتضرب بعنف عند كل منعطف حاسم فى طريق الثورة العربية . وبقدر نجاحها فى هذه المهمة تلقى المزيد من التأييد الاستعمارى . وبمفهوم المخالفة بقدر نجاح العرب فى التصدى لقوتها العسكرية ورد هجماتها العدوانية والانتصار عليها عسكرياً فى بعض المواقع ، بقدر ما تفقد من تلك الأهمية . ومن ناحية أخرى يتناسب التأييد الاستعمارى تناسباً طردياً مع أهمية مصالح كل دولة استعمارية فى البلاد العربية وبصفة خاصة فى الشرق العربى . ولنا فى موقف فرنسا دروس عميقة المعانى . لقد حاربت فرنسا إلى جانب إسرائيل ضد مصر سنة ١٩٥٦ ، ثم وقفت موقف الحياد سنة ١٩٦٧ ، ثم أصبح هذا الحياد متسماً بالعطف على قضية العرب فى ١٩٦٩ . إن النظرة الذاتية والشخصية لقضايا السياسة تجعل الكثيرين منا يفسرون هذا التغيير فى موقف فرنسا بالتغيير فى الأشخاص . فجى موليه عميل للصهيونية وديجول رجل مبادئ . ولكن تلك النظرة ساذجة وفجة . فالديجوليون فى البرلمان الفرنسى لم يعارضوا حملة السويس سنة ١٩٥٦ . وإنما أساس التغيير هو

أن السنوات الإحدى عشرة قد شهدت حدثاً ضخماً هو انتهاء حرب الجزائر بانتصار الشعب الشقيق وإعلان استقلاله . ففرنسا اشتركت فى حملة السويس لا حباً فى إسرائيل وإنما انتقاماً من تأميم شركة قناة السويس ، وسعياً لضرب ثورة فرنسا فى نهاية الأمر عن طريق النصر فى السويس . ذلك أن تحرر الجزائر بعد أن ظلت مائة وثلاثين عاماً تعتبرها مجرد أربع مقاطعات فرنسية كان أمراً ترفض الطبقات الحاكمة مجرد تصوره . أما الآن وقد صفيت المواقع الاستعمارية الفرنسية فى الوطن العربى ، فلم يعد لإسرائيل أهميتها الحيوية فى نظر باريس ككلب حراسة . وأدركت أقسام واسعة من الرأسمالية الفرنسية أنها لم تخسر الجزائر فحسب ، وإنما كانت حرب السويس كارثة على كل مصالحها الاقتصادية فى الشرق العربى . فقد دفعت باعتبارها الشريك الأصغر فى المغامرة الاستعمارية أبهظ الأثمان . وبينما نجحت بريطانيا فى استرداد بعض مواقعها ظلت فرنسا خارج الصورة . وتجلى هذا فى أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ .ففرنسا منذ عدة قرون تحرص على أن يكون لها علاقة خاصة بالقطر الشقيق ، أيا كان الشكل الذى تمارس به تلك العلاقة . ولكنها فى تلك الأزمة لم تملك أن تحرك ساكناً وحلت أمريكا محلها ، باستعراض القوة أولا ، وبعد النفوذ الاقتصادى والسياسى ثانياً . ولذلك كان طبيعياً أن يتبلور فى فرنسا اتجاه نحو استعادة العلاقات الاقتصادية والثقافية مع البلاد العربية . وكان طبيعياً أن يرفض أصحاب هذا الاتجاه أن تقف المطامع التوسعية الإسرائيلية عقبة فى سبيل التعامل مع سوق تضم قرابة مائة مليون وأرض تضم ثروات ضخمة . وساعد على دعم هذا الاتجاه أنه يتفق تماماً مع سياسة فرنسا إزاء العالم الثالث بعد تصفية وضع المستعمرات الفرنسية فى إفريقيا ، هذا الاتجاه الذى يقوم على محاولة إنشاء علاقات اقتصادية وثقافية مع القوى الجديدة التى ناضلت من أجل الاستقلال بدل مناهضتها

بقوة السلاح ، تلك المناهضة التى ليس لها من نتيجة فى النهاية إلا المزيد من الثورية لدى حركة التحرر الوطنى والمزيد من الارتباط بالمعسكر الاشتراكى . ومن المعروف مثلا أن ديجول كان يرى أن تبنى كاسترو وأنصاره للماركسية اللينينية تم تحت ضغط التشدد الأمريكى ، وأن السياسة الفرنسية قد نجحت على العكس من ذلك ، فى المحافظة على علاقات مثمرة مع الجزائر بعد استقلالها، برغم كل ما خلفته حرب السنوات السبع من مرارة لدى طرفيها . كذلك كانت سياسة فرنسا إزاء أزمة الشرق الأوسط تتسق تماماً مع سياستها الأوربية والعالمية التى تتمثل فى موقف استقلالى من أمريكا وتزعم لحركة الوحدة الأوربية . فإسرائيل تتحرك فى تعاون وثيق مع أمريكا وألمانيا الغربية ولم تصغ لنصائح فرنسا ، ولذلك فليس هناك ما يبرر وقوف فرنسا إلى جانبها ، وإلا كانت باريس تخدم فى النهاية فى الشرق الأوسط السياسة التى تقاومها فى أوربا وفى حلف الأطلسى . والمهم هو أن حجر الزاوية فى سياسة فرنسا كان عدم حاجتها إلى إسرائيل لتقوم بدور الانكشارية فى الوطن العربى . وهى كدولة غربية استعمارية تحرص على الوجود الإسرائيلى . وقد أكد ديجول أكثر من مرة هذا المعنى . ولكنها فى ظروف ١٩٦٧ لم تكن لها أية مصلحة فى التحرك العسكرى الإسرائيلى ، ولذلك لم تسانده . وكانت السياسة حكيمة ، إذ فتحت أمام فرنسا باب صفقات مربحة فى مجال السلاح والبترول ، فضلا عن أنها وفرت عليها أى تعقيدات فى الجزائر ، مورد تموينها الأساسى من البترول . ويمكن أن نقول إن موقف بريطانيا بدأ يتغير بعد انسحابها من اليمن الجنوبى وتقرير مبدأ الانسحاب من الخليج . ولولا ارتباط سياسة بريطانيا الخارجية على المستوى العالمى بالسياسة الأمريكية لكان موقف بريطانيا من أزمة الشرق الأوسط أكثر تطوراً .

ونخلص من هذا كله إلى أن تصفية المواقع الاستعمارية إضعاف لإسرائيل من زاويتين . من زاوية أن تلك المواقع تخدم إسرائيل ، ومن زاوية أن دور إسرائيل فى حمايتها يزيد من مساندة الاستعمار للدولة الصهيونية . وهذا التغيير فى أوضاع المنطقة لابد أن ينعكس على الأوضاع الداخلية فى إسرائيل . فضعف المواقع العسكرية للاستعمار يقلل من حرية حركة الصهيونية ، لأن إسرائيل قد تعودت أن تتحرك عسكرياً معتمدة على أن وجودها فى نهاية الأمر مصون بقوى الاستعمار العالمى وأن أقصى ما تخاطر به هو الإخفاق فى عملياتها التوسعية . فإذا تغير هذا الأساس يتعين عليها أن تفكر مرتين قبل أن تعتدى . وبالتالى تتضاءل فرص التوسع أمامها . وقد رأينا أهمية التوسع الإقليمى لاستمرار الوجود الصهيونى ذاته .

ومن ناحية أخرى ضعف اهتمام الاستعمار بإسرائيل لابد أن يقلل من حجم ما تحصل عليه من معونات ، وقد سبق أن رأينا أن تلك المعونات الهائلة هى التى مكنت إسرائيل من الحياة والنمو حتى الآن دون توسع إقليمى منتظم . وبالتالى فإن انكماشها سيؤدى إلى ضائقة اقتصادية فى إسرائيل وتدهور فى مستوى المعيشة من شأنه أن يدفع إلى الهجرة منها بشكل يصفى جزئياً وجودها السكانى . كذلك تحرر تصفية المواقع الاستعمارية الإرادة العربية . وهذا واضح تماماً فى وضع القواعد العسكرية. ولكنه حقيقة أيضاً فيما يتعلق بالمواقع الاقتصادية الاستعمارية وبالذات للبترول. إن المصالح البترولية فى البلاد العربية هى أهم المواقع الاقتصادية للاستعمار الأمريكى . فأمريكا تملك حوالى ٦٤ ٪ من رؤوس الأموال الأجنبية المستثمرة فى البترول العربى . وهى مصدر أرباح ضخمة يسيل لها اللعاب . وأمريكا تستخدم تلك المصالح فى تفريق الصف العربى على أساس دول غنية ودول فقيرة ، كما أنها تحنو على إسرائيل لأنها فى نظرها الحارس الأمين على تلك المصالح . ويوم ينجح العرب فى تأميم

البترول ، أو تأميم المصالح الأمريكية على الأقل ، ستفقد إسرائيل جزءاً كبيراً من أهميتها فى نظر الولايات المتحدة . إن البترول يلعب حالياً فى تحديد سياسة أمريكا فى المنطقة الدور الذى كانت تلعبه ثورة الجزائر فى تحديد سياسة فرنسا إزاءها سنة ١٩٥٦ . والبترول العربى يتميز بوضع استثنائى يسهل تأميمه . فالمستهلك الأساسى له هو أوربا الغربية ، فى حين أن المساهم الأساسى فى رأس المال الأجنبى المستثمر فيه هو أمريكا. ولذلك فلن تكون هناك مقاطعة فعالة للبترول العربى غداة تأميمه، لأن أوربا سيكون من مصلحتها أن تشترى البترول العربى باستمرار . وهى لن تضار بالتأميم بحيث تقف منا موقف العداء . بل إنه يمكن أن تشترى بشروط أفضل . ففى وسع العرب أن يخفضوا بعد التأميم سعر البترول بنسبة ٢٥ ٪ مثلا ، ومع ذلك يزيد دخلهم منه لأنهم سيستولون عندئذ على نسبة ٥٠ ٪ من الأرباح التى تستولى عليها حالياً الاحتكارات العالمية .

فما أعظم ضلال أولئك الذين يحلمون بإمكان كسب تأييد الدول الاستعمارية ضد إسرائيل ! إن الدولة الصهيونية جزء من الظاهرة الإمبريالية العالمية لا يمكن فصلها عنها . ومحاولة كسب التأييد الاستعمارى بزيادة حجم المصالح الاستعمارية فى الأراضى العربية هو فى التحليل الأخير تسليم بأهداف الاستعمار والصهيونية . فالاستعمار يساند إسرائيل لحماية مصالحه . فإذا حصل على مزيد من المصالح ، فإن تمسكه بإسرائيل سيزيد لأنه يعلم أن الشعوب لن تسكت عن الاستغلال الاستعمارى ، بل لابد أن تتمرد عليه . ومن ثم لابد من تقوية «الانكشارية» لمضاعفة الحراسة . كما أن ضغط المصالح الاستعمارية على الدول العربية يشل من حرية حركتها فى مواجهة إسرائيل . إن الاستعمار لا يمكن أن يكون حتى فى موقف المحايد فى هذا الصدام ،

لأنه طرف أصيل فيه . وليس معنى ذلك أنه لا توجد تناقضات بين إسرائيل والدول الاستعمارية المختلفة . فالعلاقات الاستعمارية بطبيعتها حافلة بالتناقضات . ومن واجبنا ألا نهمل تلك الحقيقة وأن نحاول الاستفادة من التناقضات بقدر الإمكان ، ودون الجرى وراء خيالات كاذبة . فعاداتنا للاستعمار ليس معناها قطع كل علاقة تجارية أو اقتصادية أو ثقافية معه . ونحن نمارس تلك العلاقات فى الحدود التى تفيد اقتصادنا القومى ولا تهدد استقلالنا السياسى . وبالتالى يمكن أن نميز فيها دولة على دولة أخرى حسب درجة مساندتها لإسرائيل . وبهذا الشكل نؤكد التنافضات مثلا بين فرنسا وإسرائيل. ولكن لا يكون معنى ذلك التنازل عن حقوق سيادة لصالح فرنسا ، أو توهم أن فرنسا يمكن مثلا أن تقف إلى جانبنا إذا أصبح الوجود الإسرائيلى مهدداً ، أو حتى مجرد أمن إسرائيل . بل إنه من المتصور أن يوجد تناقض بين إسرائيل وأمريكا . فبعض الأوساط الحاكمة فى أمريكا لا تنظر بعين الرضا إلى ما تعتبره مطامع توسعية إسرائيلية مبالغاً فيها ، ولا تطمئن إلى أن تكون إسرائيل قادرة فى أى وقت على شن حرب خاطفة على جيرانها دون موافقة واشنطون . فالصهيونية فى إسرائيل لها مصالح استعمارية واضحة ، وهى ليست مجرد أداة فى يد الاستعمار ، فى حين أن إسرائيل فى نظر أمريكا يجب أن تكون قطعة شطرنج فى لعبة السيطرة العالمية ، قطعة ممتازة ولا شك ولكنها مجرد قطعة على كل حال . ومن هنا ليس عبثاً أن نحاول التأثير فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط . ولكن الخطر هو أن نتوهم لهذا التأثير أبعاداً كبيرة أو غير واقعية .

التنمية الشاملة

والفضيلة الكبرى للتحرر من السيطرة الاستعمارية هى استرداد

حرية الإرادة الوطنية . ولذلك فإن الاستقلال السياسى تكمن أهميته فى أنه يفتح الطريق أمام ما كان مستحيلا بدونه . ويبقى بعد ذلك أن قيمته الحقيقية تتوقف فى نهاية الأمر على ما نصنع بعد الحصول عليه . فالحرية فى يد الشعوب ، كالحرية فى يد الأفراد ، مكنة غنية بالاحتمالات . ولكن تحويل ما هو كائن بالقوة إلى قائم بالفعل يحكمه فى النهاية كيف يستخدم الشعب حريته المستردة . وثمة بلدان فى العام الثالث فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين حصلت على الاستقلال السياسى ولكن حكامها يتمسكون بأذيال الاستعمار ، ويستجدون بقاء قواعد له (حتى بلغت الأمور فى بعض الأحوال حد عرض تعويض المستعمر عما ينفقه على تلك القواعد . . !) ، ويتمسحون فى حضارته ويصرون على الانتماء إلى « الكومنولث » أو « الجماعة الفرنسية » . . . إلخ . وفى مثل هذه الأحوال لا يعدو الاستقلال السياسى مجرد بعض الظواهر الشكلية : ألقاب رياسة الدولة ، العلم الوطنى والنشيد ، وأحياناً شركة طيران تحمل اسم البلد وتملكها إحدى الشركات العالمية . ونحن حين نطالب باستكمال استقلال البلاد العربية ، إنما نريد أن تكون للشعوب العربية حرية تطوير حياتها جذرياً لتسترد مركزها بين الأمم المتقدمة التى تقدم للبشرية عناصر حضارة العصر وتفوز من ثمار انتصارات الإنسان العلمية والتكنولوجية بأعظم نصيب . بعبارة أخرى ، إن هدفنا هو تنمية المجتمع العربى . وقد استخدمنا عن قصد كلمة « التنمية » دون أن نلحقها بنعت « الاقتصادية » . فنحن نعنى هنا التطوير الشامل لكل مظاهر الحياة العربية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية . إننا يجب أن نقضى على عقدة « التفوق الأوربى » التى تتيه بها إسرائيل . والصدام بيننا وبين العدو الصهيونى الإمبريالى لن يكون فى كل لحظة من لحظاته صداماً عسكرياً خالصاً . بل إنه صدام حضارى بأوسع معانى تلك الكلمة .

فطموح إسرائيل فى السيطرة الاقتصادية على المنطقة مبنى على فكرة عجزنا عن استغلال مواردنا بأنفسنا لتخلفنا العلمى والتكنولوجى . وأملها فى الأسواق العربية قائم على الاقتناع بقصور الصناعة العربية عن تغطية تلك الأسواق . ومكانة إسرائيل فى كثير من الأوساط المثقفة فى العالم ترجع إلى دور العلماء والأدباء والفنانين الإسرائيليين فى كل مظاهر الحياة الفكرية العالمية . ونفوذ إسرائيل فى عدد كبير من بلدان العالم الثالث لا يرجع فى الأساس « للمال والجنس » كما كتبت بعض الصحف العربية أحياناً ، وإنما يرجع قبل كل شىء لقدرة إسرائيل على أن تقدم لتلك البلدان خبراء من مستوى عالمى يتميزون بالفاعلية والجدية ، ومشروعات مدروسة على أسس علمية . ويجب ألا نخدع أنفسنا عن شىء من ذلك كله . بل إن الصدام العسكرى نفسه أصبح فى عصرنا يعتمد إلى حد كبير على درجة تقدم المجتمع . فالأسلحة الحديثة آلية معقدة يقتضى استعمالها مستوى حضارياً معيناً . وإنتاجها وصيانتها وإصلاحها ، تفترض تقدماً صناعياً ملموساً . والحرب العصرية حرب شاملة تستلزم تعبئة اقتصادية كاملة غير متصورة فى ظروف التخلف الاقتصادى الشديد . . . إلخ .

التنمية ، بمعناها الواسع ، إذن هى البنيان الشامخ الذى يمكن أن يصمد لهجوم الاستعمار والصهيونية ، ثم يدحره ، ثم يصفى قواعده تصفية حاسمة وقاطعة . وحجر الأساس فى تلك التنمية الشاملة هو بلاشك التنمية الاقتصادية . فنشر التعليم ، والرعاية الصحية ، وتوفير السكن ، وتطوير البحث العلمى تبقى أحلاماً بعيدة المنال ما دام الشعب لا يملك الوسائل المادية لتوفيرها . فالزيادة المطردة فى الإنتاج بمعدلات عالية هى وحدها التى تضمن اضطراد الزيادة فى الدخل القومى وارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الإمكانية الموضوعية لانطلاقة حضارية تمكن العرب من تصفية مخلفات قرون من القهر والتخلف . وضرورة هذه التنمية الاقتصادية هى التى

تفرض الحل الاشتراكى فرضاً . ذلك أنه فى ظروف عالم اليوم يعجز النظام الرأسمالى عجزاً مطلقاً عن إحداث تنمية اقتصادية جدية ومنتظمة. وليس هنا مجال الإفاضة فى التدليل على ذلك . وإنما يكفى التذكير بأن التنمية الرائعة التى تمت فى البلدان الرأسمالية المتقدمة جرت فى ظروف يستحيل تكرارها اليوم . فقد بدأت فى غربى أوربا فى وقت كان العالم كله يجهل الصناعة الحديثة واستفادت من عمليات نهب المستعمرات ، واعتمدت على استغلال بشع للطبقة العاملة (١٢ ساعة عمل فى اليوم وأجور بالغة الانخفاض . . . إلخ) . أما اليوم فالبلدان النامية تبدأ التصنيع بعد أن سبقتها إليه دول صناعية كبرى . وهى لا يمكن أن تستغل شعوباً أخرى ، ومن المستحيل أن تفرض على شعوبها ما عاناه الشعب الإنجليزى مثلا فى النصف الأول من القرن الماضى . وفى العصر الحديث النموذج الوحيد للتنمية الاقتصادية هو النموذج الاشتراكى ، لأن الملكية العامة وما تتيحه من إمكانية التخطيط ، وما توفره من تعبئة جماهيرية فى خدمة الإنتاج تعطى فرصاً ضخمة لتطور اقتصادى سريع ومنتظم . ولكل ذلك فاختيار طريق الاشتراكية ضرورة تمليها اعتبارات النضال الوطنى من أجل التقدم ، بقدر ما تبررها اعتبارات العدل الاجتماعى وتفسرها النظرة العلمية إلى تطور المجتمع البشرى .

إن الاشتراكية هى طريق التنمية ، طريق بناء الوطن العربى اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً لتلحق بركب التقدم ولتقف على نفس المستوى العلمى والتكنولوجى الذى يقف عليه العدو . إن هذا البناء هو العمل الحاسم فى تاريخ الصدام العربى الصهيونى ، وطريقه الوحيد هو الاشتراكية . ونود أن ننبه هنا إلى خطر الخلط بين الغنى والنمو الاقتصادى . فارتفاع متوسط الدخل القومى ليس دليلا مطلقاً على التنمية الاقتصادية . ومن المعروف أن هذا المتوسط أعلى فى أبى ظبى مثلا منه فى الولايات المتحدة

الأمريكية ، بأى طريقة كان حساب الدخل القومى . ولا يزعم أحد أن الإمارة العربية الصغيرة أكثر تقدماً من أمريكا . وحتى لو تم توزيع الدخل القومى بطريقة معقولة تسمح بارتفاع حقيقى فى مستوى معيشة الجماهير الشعبية ، فإن هذا لا يعنى أن هناك تنمية اقتصادية . فلا تنمية بدون تصنيع . وحين يعدّ بلد معين نفسه غنياً لأنه يحصل على عوائد عالية مقابل تسليم ثروة طبيعية مثل البترول للاحتكارات العالمية الكبرى ، فإنه بالرغم من ارتفاع مستوى المعيشة لا يحقق التنمية الشاملة بمعناها الحضارى الواسع . فمصدر الثروة ، وهو البترول مهدد بعوامل شتى : نضوب الآبار ، انخفاض سعر البترول بشكل حاد على أثر اكتشاف حقول بترول وغاز طبيعى متعددة وغنية (مثل حقول سيبريا ، وآلاسكا وجنوب شرقى أستراليا وتسمانيا ، التى يقول الخبراء إنها لا تقل غنى عن حقول الشرق الأوسط) أو نتيجة للتوسع فى استخدام مصدر جديد للطاقة مثل الطاقة النووية . وليس أدل على أن هذا الوضع لا يؤدى إلى تنمية حقيقية من أنه بدل أن يقود إلى استقلال اقتصادى فعلى يؤدى إلى مزيد من الارتباط بالاستعمار . فالاعتماد على عائدات البترول وحدها يجعل الدول المنتجة تحت رحمة أى تهديد بالمقاطعة أو بتخفيض الإنتاج . كما أن الدخل الضخم الذى يتدفق فجأة مع تدفق البترول يدفع إلى الإنفاق البذخى ولاينمى أى اتجاه نحو الادخار والاستثمار ، لأنه يخلق شعوراً يماثل شعور من عثر على كنز يظن أنه لا ينفد. وحتى حين يدخر الحكام أو الحكومات يتخذ الادخار أساساً شكل الإيداع فى البنوك العالمية مع ما يتضمنه ذلك من خطر تجميد تلك الودائع فى حالة الصدام مع الاستعمار . وكلنا نعرف أن الدول الغربية جمدت الحسابات المصرية فى بنوكها ، مثلا ، غداة تأميم شركة قناة السويس سنة ١٩٥٦ . وربما كان من المفيد أن نشير هنا إلى أن الدول الاستعمارية تحصل فعلياً على

أكثر من ٥٠ ٪ من أرباح البترول . وهى على أية حال تسترد الجزء الأعظم مما تحصل عليه الدول المنتجة فى شكل بيع سلع استهلاكية إليها أو فى شكل ودائع لتلك الدول فى بنوك الدول الاستعمارية . وأخيراً فإن هذا الغنى لا يحقق التقدم الحضارى المنشود ، بل إنه يستخدم عادة فى المحافظة على هيكل اجتماعى متخلف سياسياً وثقافياً واجتماعياً .

حقيقة القومية العربية

كثيراً ما نقول إننا مائة مليون عربى ، ولا بد بالتالى أن نتغلب على المليونين ونصف المليون من الإسرائيليين . وتقفز الدعاية الصهيونية لتستفيد مما نقول فتصرخ فى الرأى العام العالمى : انظروا إنها قصة داود وجوليات من جديد ، إن الجموع العربية الزاخرة تزحف لتقضى على الدولة الصغيرة المسالمة . ثم يقع الصدام فإذا « الحمل الوديع » ينكشف عن معتد أثيم ، قادر على أن يهزم الدول العربية الأربع عشرة . فهل نستغرب بعد ذلك أن تشيع البلبلة فى صفوفنا ، ويسود الخلط دوائر واسعة من الرأى العام العالمى؟إننا مرة أخرى نخلط ما هو ممكن بالقوة بما هو قائم بالفعل. فالقومية العربية حقيقة علمية ، بمعنى أن العرب يكوّنون أمة واحدة . وشعور الجماهير الفياض يفرض ذلك الواقع فرضاً فى كل المواقف الحاسمة وبغض النظر عن مواقف الحكام أو ذبذبة بعض الفئات الاجتماعية ، أو الجدل النظرى الذى يثيره بعض المثقفين . والوحدة هدف أصيل لكل الجماهير العربية فيما وراء كل النزعات الإقليمية التى تطفو على السطح فى بعض الظروف هنا أو هناك ، تلك النزعات التى لا تختلف كيفياً من حيث الأهمية عن النزعات الإقليمية أو الطائفية التى نشاهدها داخل هذه الدولة العربية أو تلك . ولكننا نجد فى مواجهة هذا الهدف وما يثيره من طاقات نضالية ، واقع التجزئة وما يفرضه من قيود وحدود

على النضال العربى .

إن الأمة العربية لها من عدد السكان ، واتساع الأرض ، والموقع الجغرافى ، والموارد الطبيعية ، والتراث الحضارى ، ما يجعل من المتصور أن تحتل يوماً ما مكانة ممتازة بين الأمم . ولكن طريق الوحدة شاق ووعر . والقوى التى تقاوم الوحدة كثيرة وقوية : الاستعمار ، الصهيونية ، الرجعية ، الحكام وقادة الأحزاب الذين يؤثرون الانفراد بالسلطة فى دولة معينة على التضحية من أجل التوحيد القومى . كما أن هناك عقبات موضوعية فى طريق التوحيد . وفى مقدمة تلك العقبات التفاوت فى مستوى التنمية وأثره فى الفكر وفى خشية سيطرة الأكثر تقدماً ، النمو الاقتصادى المتماثل الذى يخلق تعارضاً فى المصالح بدل التكامل بينها ، انقسام الدول العربية إلى دول غنية (المنتجة للبترول) ودول فقيرة ، مخلفات واقع التجزئة الذى استمر أحياناً فترات طويلة (وبنوع خاص عزلة المغرب العربى عن المشرق العربى ، ثم محاولة عزل وادى النيل عن المشرق والمغرب جميعاً) ، الارتباطات والمواقع الاستعمارية التى ما زالت قائمة فى بعض أجزاء الوطن العربى . ويضاف إلى ذلك كله الخلاف الفكرى حول المحتوى السياسى والاجتماعى للوحدة القومية والذى ظل محوره لفترة طويلة : الوحدة قبل كل شىء ولو فى ظل النفوذ الاستعمارى أو حتى تحت قيادة الإقطاع أو البورجوازية ، أو الوحدة فى إطار تحررى وديمقراطى وتقدمى .

لقد جرت محاولات متعددة للسير فى طريق التوحيد القومى من الجامعة العربية إلى اتفاقيات الدفاع الثنائية إلى الوحدة المصرية السورية والاتحاد الهاشمى . ولم يكن التوفيق حليف تلك المحاولات فى أغلب الأحوال . وقد أعقب قيام الوحدة بين سورية ومصر ثم انفصامها نوع من الردة الإقليمية تمثل فى الانصراف إلى القضايا الداخلية فى كل بلد على حدة ، والإبقاء على التوحيد القومى فى حالة هدف بعيد وغامض أقرب

إلى الأمل الذى يداعب الأحلام منه إلى المقصد المحدد الذى يشغل الأذهان . ولكن نكسة يونية ١٩٦٧ كشفت النقاب مرة أخرى وبعنف ومرارة عن حقيقة وحدة المصير العربى ، وتجدد الشعور بأهمية التفكير المباشر فى الوحدة العربية . وظهرت فى الأفق فكرة وحدة الصف العربى على أوسع نطاق ، وفكرة وحدة الدول العربية التقدمية وحدها ، وفكرة التنسيق العسكرى بين الدول التى اعتدت عليها إسرائيل، وفكرة الوحدة من خلال الالتفاف حول العمل الفدائى . . . إلخ . والأمر الذى يجب أن نتفق عليه هو أن التوحيد القومى حتمية تاريخية تمليها حقيقة القومية العربية ووحدة المصير العربى ، وأن طريقه ليس مفروشاً بالرياحين . ولكن ثمة علامات على هذا الطريق ينبغى أن نتفق عليها ، لأنها مستمدة من واقع نضالنا ومن تجارب التوحيد القومى ومن حقائق عالمنا المعاصر :

١ — التوحيد القومى الشامل هدف استراتيجى يستغرق النضال من أجله سنوات طويلة . والمهم هو ألا نهمله لأنه بعيد التحقيق ، وإنما نتخذه بالفعل هدفاً استراتيجياً . بمعنى أنه يجب أن يحكم الكثير من تصرفاتنا الحاضرة والمستقبلة لتكون حركتنا فى اتجاهها الأساسى بحيث تقربنا منه لا أن تبعدنا عنه .

٢ — لن يتم التوحيد الشامل إلا على أساس تحرر كل أجزاء الوطن العربى ، واتجاه العمل الوطنى فى كل منها فى اتجاه ديمقراطى واشتراكى. فالوحدة العربية إما أن تكون تحررية وديمقراطية وتقدمية وإما لن تكون أصلا . فلن تكون وحدة يباركها الاستعمار أو يهيمن عليها الإقطاع أو تقودها الرأسمالية المستغلة ، فمثل تلك الوحدة لن ترحب بها الشعوب بل ستقاومها .

٣ — التنسيق بهدف تحقيق التكامل الاقتصادى يدعم النضال الوحدوى لأنه يحد من التناقضات الإقليمية ويقلل من التفاوت فى التنمية ويخلق

المزيد من المصالح المشتركة التى تضيق بالحدود الحالية بين الدول العربية .

٤ ــ لن يؤدى التوحيد القومى إلى قيام دولة عربية مركزية : فالتفاوت فى التنمية ، وواقع الخصائص الإقليمية ، وطبيعة التفكير المعاصر فى أسلوب إدارة الدول الكبيرة ، أمور تحتم كلها تغليب الأشكال الاتحادية أو الفيدرالية .

٥ ــ من الطبيعى أن تسبق التوحيد القومى الشامل إجراءات توحيد بين بعض الأقطار العربية المتجاورة ، ذات المصالح المتكاملة . ويجب أن ننظر إلى مثل تلك الإجراءات لا على أنها بديل للتوحيد الشامل ، بل على أنها خطوات فى طريقه . ذلك رهينة أن يكون المحتوى التحررى والديمقراطى والتقدمى واضحاً فى جميع الأحوال .

٦ ــ يجب الاهتمام بالجوانب الموضوعية وعدم التركيز على الشكل . فبدل السعى وراء أشكال توحيد دستورية لا تعبر عن الواقع بل تضيق عن احتوائه أو تكون ثوباً فضفاضاً لا يعنى شيئاً ، يجب أن نعنى بكل ما يرسى دعائم واقعية للتوحيد . فبرامج التعليم الموحدة ، وشبكات المواصلات ، ومشروعات التنمية المشتركة ، وزيادة حجم التبادل التجارى أبعد أثراً فى التمهيد للوحدة من « إنشاء قيادة سياسية مشتركة » أو محاولة التوحيد عن طريق وحدة الحزب الحاكم .

٧ ــ كل حديث عن الوحدة القومية يفقد معظم دلالته وجديته إذا لم يصطحب بإجراءات عملية لتحقيق الوحدة الوطنية فى داخل كل بلد عربى . إن القضية القومية لا يمكن أن تكون ملكاً لحزب معين أو لقيادة محددة . وكل من يظن أن انفراده بالسلطة فى بلد عربى يؤهله للانفراد بقيادة حركة التوحيد القومى يضل ضلالا بعيداً . إن الوحدة لا تنبع من الانقسام والتفتيت . ولا يمكن أن يكون من يفتت القوى الوطنية فى الداخل مناضلا جاداً فى سبيل الوحدة القومية ، لأن هذه الأخيرة غير متصورة

إلا على أساس أوسع تعاون بين قوى وطنية وثورية ذات منطلقات فكرية مختلفة وتجارب نضالية متباينة .

٨ — التوحيد القومى فى التحليل الأخير عملية نضالية. ولذلك فإن الطريق إليه لابد أن يمر بوحدة العمل النضالى فى معارك محدودة ومتوالية . وقد خلق عدوان يونية ١٩٦٧ أوضاعاً تقتضى عملا مشتركاً على النطاق العربى . ولذلك فإن وحدة العمل من أجل تصفية آثار العدوان محك حقيقى لصدق الاتجاهات الوحدوية وسلامة رؤيتها .

٩ — يظل الالتفاف حول نضال الشعب الفلسطينى ومساندته فى غير ما وصاية عليه محوراً أساسياً من المحاور التى تبنى عليها الوحدة القومية .

١٠ — الإجراءات الوحدوية يجب أن تتعدد وأن تتفاوت ولا يلغى بعضها بعضاً . ففى المعركة من أجل تصفية العدوان يمكن أن نتصور مستويات متعددة من وحدة العمل العربى ، مستوى عال من التنسيق السياسى بين الدول العربية التقدمية يكمله ويسانده تنسيق شعبى بين القوى الثورية العربية ، تنسيق عسكرى بين الدول التى اعتدت عليها إسرائيل ثم مع الدول الراغبة فى المشاركة فى العمل العسكرى والقادرة على ذلك فى إطار تكوين ودعم الجبهة الغربية والجبهة الشرقية ، أشكال معاونة متعددة ومتنوعة من بقية الدول العربية تتناسب مع إمكانياتها الواقعية .

١١ — وأخيراً ، وليس ذلك أقل الأمور أهمية ، التوحيد عملية نضال شعبى . ولهذا فلا بد من نشاط فعال فى مجال اللقاء والتعاون والتنسيق على مستوى التنظيمات الشعبية ، السياسية والجماهيرية : الأحزاب ، النقابات العمالية ، منظمات الطلبة والشباب والنساء . . . إلخ .

٩

نحن والعالم

وحتى تكتمل صورة النضال العربى ضد مخططات الصهيونية والاستعمار ، لا بد أن نضعه فى محله الصحيح من أحداث العالم المعاصر وتياراته . فقد أصبح من نافلة القول الحديث عن دور وسائل الاتصال الحديثة وإلغائها للمسافات مما غدا معه من المستحيل عزل أى مشكلة جادة فى نطاق إقليمى محدود وبعيداً عن بقية البشرية كما كانت الأحوال عبر آلاف السنين . والمنطقة العربية بما لها من أهمية استراتيجية تجذب تقليدياً اهتمام كل القوى العالمية ، لأن كل تغيير جوهرى فيها له أثره على السياسة العالمية . والعدو الإسرائيلى يعتمد على أوسع نطاق على المساندة الخارجية . والاستعمار من ورائه طرف أصيل فى الصراع . ولكل ذلك فنحن لا نملك أن نتجاهل العالم الخارجى فلا ندخله فى حساباتنا ، فأثره على نضالنا مباشر وملموس . وسنة المناضلين فى هذه الحال هى أن يحددوا حلفاءهم الطبيعيين الذين تربطهم بهم مصالح مشتركة . ثم عليهم أن يبذلوا غاية الجهد ليحرموا العدو من أكبر قدر ممكن من القوى التى تسانده ، إما بكسبها بالكامل لقضية نضالهم أو لكسب عطفها أو ضمان حيدتها فى القدر الأدنى . فعزل العدو فى السياسة كما فى الحرب من القواعد الأولية للصراع . ولا شك أن هذا الجهد الشامل يفرض علينا أن نتكلم لغات متعددة ، حتى نتحدث مع كل طرف الحديث الذى يعنيه ويمس القضايا التى تشغله . وليس معنى ذلك أن ننافق ونقول هنا عكس ما نقول هناك كما تخيل البعض أنه يمكن أن نستعين بالدول الاشتراكية بأن نؤكد عداوتنا للاستعمار ، ونكسب عطف الإمبريالية بتأكيد معاداة الشيوعية .

فمثل هذا المنهج عبث يرتد إلى أصحابه بخسارة على كل الجبهات . وتعدد اللغات لا ينفى وحدة المضمون . فنضالنا له محتوى لا يمكن طمسه ، وإنما علينا أن نؤكد لكل طرف نخاطبه ، ذلك الجانب من نضالنا الذى يلقى لديه القبول والعناية فى ضوء ما يشغله من قضايا . وفيما يلى تفصيل وتدليل .

الدول الاشتراكية

إن الثورة العربية بأهدافها الثلاثة : التحررى والتقدمى والوحدوى جزء لا يتجزأ بطبيعة الأشياء من مجموعة التيارات الثورية التى تلتقى فى النهاية حول هدف رئيسى هو تخليص البشرية من كل أشكال الاستغلال والقهر . ولذلك فكل القوى الثورية فى مختلف بقاع الأرض حليف طبيعى لنا ، لأنها فى النهاية تستهدف نفس هدفنا . وانتصارنا تعزيز لنضالها ، كما أن وجودها ونضالها وانتصاراتها بإضعافها للإمبريالية تدعم النضال العربى . وفى رأس القوة الثورية فى عالم اليوم تقف مجموعة الدول الاشتراكية وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى . ولا شك أن حسن الفهم المتبادل بين الحلفاء شرط أساسى لتطوير التعاون بينهم . ولذلك فإنه من المفيد أن نناقش موقف الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٤٨ قبل أن نشير إلى مواقفه التالية .

لقد صوت الاتحاد السوفييتى آنذاك إلى جانب قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، ثم بادر بالاعتراف بدولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . وبقى هذا الموقف غير مفهوم من أوسع الجماهير العربية . ومع تطور الصداقة العربية السوفييتية جرت العادة « على ترك هذا الموضوع الحساس جانباً » فى حين دفع هذا التطور كل أعداء تلك الصداقة وأعداء الشعوب العربية ، إلى القيام بمحاولات متكررة لاستغلال « موقف ١٩٤٨ » بقصد التشكيك فى الأسس المبدئية التى تقوم عليها

علاقاتنا بالاتحاد السوفييتى . وباسم هذه العلاقات الحيوية ولصالحها نطرح فى صراحة تلك القضية . وفى تقديرنا أن موقف موسكو فى ١٩٤٧/ ١٩٤٨ كان خطأ انبنى على تقدير خاطئ للواقع . فالاتحاد السوفييتى ، كما جاء فى التصريحات الرسمية فى ذلك الوقت ، كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن يد بريطانيا لعبت الدور الهام فى الوقيعة بين العرب واليهود فى فلسطين تطبيقاً للقاعدة المشهورة : فرق تسد . فعدم الوصول إلى حل يوفق بين الطرفين معناه استمرار الاحتلال البريطانى لفلسطين . وإذا انسحبت بريطانيا فستحل محلها أمريكا كما حدث حين أعلنت لندن عجزها عن التدخل فى تركيا واليونان فأصدرت واشنطون « مبدأ ترومان » الشهير سنة ١٩٤٧ تؤكد دورها فى المنطقة . وبهذا ازداد الاتحاد السوفييتى تمسكاً بموقفه التقليدى فى ضرورة الإسراع بجلاء المستعمر وإعلان الاستقلال كخطوة أساسية فى تحرير الشعوب وتمكينها من حل مشكلاتها. وهو على أية حال وافق فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٤٧ على قرار متكامل بإنشاء دولتين مستقلتين فى فلسطين وتحقيق نوع من العلاقة الفيدرالية بينهما وأن يتم ذلك كله تحت إشراف لجنة من الأمم المتحدة لضمان حقوق جميع الأطراف . وإذا كان الاتحاد السوفييتى لم يعترف بالدولة العربية فى فلسطين ، فذلك لأنها لم توجد . وحتى الآن تظهر الخرائط السوفييتية إسرائيل فى حدود قرار التقسيم وتظلل المناطق التى احتلتها فيما وراء تلك الحدود باعتبارها مناطق احتلال . ولم يسلم الاتحاد السوفييتى أبداً بنقل العاصمة الإسرائيلية إلى القدس الجديدة . ومع كل ذلك فإن موقفه فى ذلك الوقت قد تأثر بلا شك بتقديرات لجوانب أخرى محيطة بالمشكلة لم تؤكد الأيام صحتها . منها اعتقاده أن اليهود الذين كانوا ضحايا العنصرية الفاشية وناضلوا ضدها سيسود بينهم اتجاه ديمقراطى يرحب بالتفاهم مع العرب والتعايش معهم . ومنها أن الهجرة إلى فلسطين لن تستمر لأن شرقى

أوربا — الموطن الأساسى للهجرة — قد قامت فيه ديمقراطيات شعبية ألغت كل أثر للتفرقة العنصرية ، ولا يتصور أن يفر مواطن عادى ردت إليه حقوقه من مجتمع يبنى الاشتراكية . وبانتهاء « المسألة اليهودية » فى أوربا على هذا النحو ستفقد الصهيونية — التى لم يكف الاتحاد السوفيتى لحظة واحدة عن اعتبارها حركة عنصرية — الأرضية التى نمت فيها وترعرعت . ومنها أن الحكومات القائمة فى العالم العربى آنذاك كانت جميعاً حكومات رجعية ضالعة مع الاستعمار . ولكن تطور الأحداث أثبت خطأ كثير من تلك التقديرات . فضحايا العنصرية الفاشية قد أصبحوا بدورهم عنصريين لا يتورعون فى تطبيق أساليب النازية ، وكأنما الصورة المثلى فى نظرهم للتبرؤ نهائياً من كل آثار الإذلال والاستضعاف أن يفعلوا ما كان يفعل بهم أولئك الذين ظنوا أنفسهم سادة البشر . ونجحت الصهيونية فى اجتذاب أعداد غفيرة من يهود الديمقراطيات الشعبية التى شجعت حكوماتها فى أحوال كثيرة تلك الهجرة أو على الأقل سمحت بها ، تحت تأثير نفوذ عناصر موالية للصهيونية ، أو رغبة فى التخلص من أناس بدا أنه من الصعب أن ينخرطوا فى عملية البناء الاشتراكى . وتضخمت الهجرة بأفواج لا تقل عن ذلك عدداً قدمت من البلاد العربية . وتأكدت قبضة الصهيونية على الدولة الناشئة التى عملت منذ اللحظة الأولى على التوسع الإقليمى . وازداد ارتباط إسرائيل بالاستعمار الذى عاونها على إبطال بقية بنود قرار التقسيم وعدم تنفيذها كل القرارات التى صدرت من هيئة الأمم لصالح عرب فلسطين . وفى الوقت الذى تحولت فيه الدولة الصهيونية إلى قاعدة عدوانية من أبرز قواعد « العالم الحر » ، تفجرت الثورة فى مختلف أرجاء العالم العربى وخرجت إلى الوجود نظم متحررة تقدمية تعادى الاستعمار والإمبريالية عداء أصيلا وتتجاوز أفق الثورة الوطنية إلى أبعاد التحول الاجتماعى . نعم لقد أخطأ الاتحاد السوفيتى آنذاك . ولكنه كان خطأ فى

التقدير ، ولم يكن تخلياً عن المبادئ الأساسية التى تحكم سياسته ، والتى تقوم عليها الصداقة العربية السوفييتية ، وهى مبادئ النضال ضد الإمبريالية ، والتضامن مع حركات التحرر الوطنى والوقوف بحزم ضد العنصرية والعدوان .

ويبقى بعد ذلك أن مجرد وجود الاتحاد السوفيتى ودول المجموعة الاشتراكية يعد فى ذاته كسباً ضخماً للحركات الثورية فى كل أنحاء العالم . فلم يعد التقدم الاقتصادى والقوة العسكرية والأهمية السياسية احتكاراً للدول الاستعمارية . لم يعد فى وسع الاستعمار أن يعربد كما شاء بأساطيله البحرية والجوية وجيوشه البرية يبطش بالشعوب . وأصبح من المتعين عليه قبل كل خطوة يخطوها أن يحسب حساب رد الفعل السوفييتى . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد ، فقد قدم الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية الأخرى للنضال العربى ، وما زالت تقدم ، كل أشكال العون السياسية والاقتصادية والعسكرية . وهكذا أمكن للدول العربية المتحررة أن تحطم احتكار السلاح ، وأن تحرر تجارتها الخارجية ، وأن تنمى اقتصادياتها مستندة إلى المعاونة الصادقة من الحكومات والشعوب فى البلاد الاشتراكية . وفى تصريحات القادة العرب ، وبصفة خاصة الرئيس جمال عبد الناصر ، ما يغنى عن كل تعليق فى مجال تقدير موقف السوفييت . ولقد كشف عدوان ١٩٦٧ وما تبعه من أحداث فى الأرض المحتلة وفى إسرائيل ، وفى البلدان الاشتراكية وفى الأمم المتحدة جوانب فى الظاهرة الصهيونية الإمبريالية كان الصهيونيون يجتهدون فى إخفائها عن الرأى العام الاشتراكى . ومع ذلك فإن علينا أن نبذل جهداً كبيراً لتأصيل موقف مساندة العرب ليس فقط لدى الحكومات الاشتراكية والأحزاب الشيوعية ، وإنما لدى الرأى العام فى تلك البلدان الذى ما زال يتأثر بأصداء من الدعاية الصهيونية . علينا أن نفضح تماماً علاقة إسرائيل بالاستعمار ، ولا سيما بأمريكا وألمانيا الغربية . وعلينا أن

نبين العداء الأصيل الذى تكنه الدوائر الحاكمة فى تل أبيب إزاء الاشتراكية ، وأن نذكر بأن معظم قادة إسرائيل روس بيض أو بولنديين بيض اختاروا بين الاشتراكية والصهيونية ففضلوا الثانية على الأولى ، وبأن عدداً كبيراً من الإسرائيليين هجروا أوطاناً اشتراكية ليقيموا فى ظل الصهيونية وحماية الأسطول السادس الأمريكى . ولنا فى نشاط الدوائر الصهيونية لتؤلب اليهود فى البلاد الاشتراكية ضد حكوماتها دليل ناصع على كل ذلك . وفى الوقت نفسه يجب أن نؤكد وقوفنا بصلابه ضد الإمبريالية والاستعمار الجديد ونضالنا من أجل السلام العالمى ، وأن نثبت بالعمل جديتنا فى تطوير بلادنا بما يتفق ومقتضيات نضالنا ويمهد الطريق لبناء الاشتراكية . فالدعاية الصهيونية لا تركز فى — الدول الاشتراكية — على تزويق الوضع فى إسرائيل بقدر ما تركز على تشويه الأوضاع فى البلاد العربية وإبراز كل نواحى القصور والمبالغة فيها .

العالم الثالث

والثورة العربية جزء من تيار التحرر الوطنى الجبار الذى يسهم اليوم فى تشكيل صورة العالم فى الحقبة المقبلة . وبالتالى فإن الأمر الطبيعى والمنطقى أن تلقى قضايانا التأييد والمساندة من بلدان العالم الثالث . ولكن الواقع لا يتفق مع الطبيعة والمنطق . والمسئول الأول عن تلك المجافاة بين ما هو كائن بالفعل وما ينبغى أن يكون هو تقصيرنا الفادح فى طرح قضايانا بالأسلوب الصحيح . ولا بد قبل الاستطراد فى هذا المعنى من تفنيد رأى يروج له فى بعض الأوساط يقول إن العالم الثالث لا وزن له فى نهاية الأمر . وحتى فى هيئة الأمم يتحدد تصويت العدد الأكبر من دوله وفقاً لضغوط الدول الاستعمارية الكبرى ومواقفها . هذا بالطبع تبسيط شديد للأمور . فدول المجموعة الفرنسية فى إفريقيا مثلا لم تصوت جميعاً كما صوتت

فرنسا فى الدورة الطارئة للجمعية العمومية التى انعقدت فى يوليه سنة ١٩٦٧ بناء على طلب الاتحاد السوفييتى . ولكن الأهم من ذلك هو أن الحكومات تتغير وتزول ، أما الشعوب فباقية ولها الغلبة فى نهاية الأمر . والتقصير الفادح الذى نعنيه هو إهمال عرض قضايانا على شعوب العالم الثالث وإقناعها بعدالتها . فإزالة آثار العدوان الإسرائيلى مطلب يجب أن يقدم لتلك الشعوب من زاوية أنه رفض لمبدأ التوسع الإقليمى بالقوة ، أو تغيير الحدود بالقوة . وبهذه الصورة تحوز القضية اهتمام كل شعوب العالم الثالث ، بل حكوماته ، لأن معظم دوله لها مشكلات حدود أو يتعرض لخطر تعديل الحدود بالقوة . وقضية فلسطين ليست مشكلة مليون لاجئ كما دأبنا على الحديث عنها فى التجمعات الإفريقية ، أو الإفريقية الآسيوية . فمعظم تلك البلدان لها مشكلات لاجئين ، ولا ترى للوهلة الأولى أهمية خاصة لوضع الفلسطينيين . وإنما يجب أن نبرز حقيقتها على أنها قضية تحرر وطنى ، قضية شعب سلب أرضه واستقلاله ويطالب بحقه فى الحياة المستقلة ويناضل من أجل حقوقه بالسلاح . عندئذ تصبح قضية فلسطين كقضية أنجولا أو موزمبيق أو غينيا المسماة بالبرتغالية ، ويلتف حولها عطف الشعوب فى أرجاء العالم الثالث .

ويمكن أن نصيب الدعاية الإسرائيلية فى العالم الثالث فى مقتل إذا ركزنا على إبراز الوجه العنصرى لإسرائيل . فشعوب العالم الثالث ، وغالبيتها ملونة ، قد عانت من التعصب العنصرى الأبيض . وحساسيتها مرهفة ضد العنصرية . وعلينا إذاً أن نكشف لها عن الأساس العنصرى الذى تقوم عليه الدولة الصهيونية . وأنه لا ينحصر فقط فى العنصرية اليهودية . بل إنه عنصرية بيضاء تزدرى السود . والدليل الحاسم على ذلك امتناع إسرائيل عن محاولة تهجير « الفلاشة » يهود أثيوبيا ، « وبنى إسرائيل » يهود الهند لأنهم ملونون . ومن ارتكب منهم حماقة الهجرة إلى أرض الميعاد لقى

فيها ما يلقاه الملون فى أشد المجتمعات البيضاء تعصباً . ولم تشفع له صفة اليهودية الثابتة ، وتخلت الصهيونية إزاءه عن دعواها الأصيلة فى انحدار اليهود جميعاً من نسل يعقوب . كما أن العنصرية الصهيونية عنصرية أوربية تضطهد غير الأوربيين من اليهود . والتميز العنصرى داخل إسرائيل يصيب اليهود الشرقيين ولا يقتصر على الأقلية العربية المقهورة . وأخيراً ، لقد أجمعت الدول الإفريقية والآسيوية على الاستنكار الشديد لسياسة حكومة جنوب إفريقيا ، وقطعت كل العلاقات بها ، ورأت فيها التجسيد البشع للعنصرية فى أكثر صورها تعنتاً وحماقة . وعلينا أن نفضح حقيقة العلاقات الوثيقة بين حكام بريتوريا وقادة تل أبيب . فالاقتصاد الإسرائيلى يعتمد اعتماداً أساسياً على تصنيع الماس الخام الوارد من جنوب إفريقيا . وحملات التبرع لإسرائيل تجمع من البيض هناك أموالا طائلة . والدولة الصهيونية ترد الجميل ، فتساند الحكم العنصرى البغيض وتقدم له الخدمات ، وتلعب دور الوسيط فى معاملاته التجارية فى العالم الثالث حتى يتغلب على قرارات المقاطعة .

وأخيراً ، فإن بين بلدان العالم الثالث ، دولا متحررة ، وحكومات أكثر اتساقاً فى عدائها للإمبريالية ، وقيادات تلتقى فى فكريتها الأمانى الوطنية بالمثل العليا للاشتراكية . وهنا يجب أن نوضح فى دأب طبيعة علاقة إسرائيل بالاستعمار ، ودورها كوسيط للاستعمار الجديد ، وعداءها الأصيل لحركات التحرر الوطنى والتحول الاجتماعى . علينا أن نذكر بدور الخبراء الإسرائيليين فى التآمر ضد نكروماه ، وبرحلة ديان وغيره من الضباط إلى فيتنام ، وبمساعدات إسرائيل لمنظمة الجيش السرى الإرهابية فى الجزائر ، وبدور الإسرائيليين فى مساعدة الاستعمار البرتغالى فى حربه مع حركات التحرر الوطنى ، وبدور الخبراء الإسرائيليين فى الكونغو .

الرأى العام فى الدول الغربية

يساند الاستعمار الغربى ، كقاعدة عامة ، إسرائيل مساندة واسعة . ولكن هذا لا يعنى أن أبواب الدول الغربية موصدة أمام من يدعو للقضية العربية ، أو أن الآذان هناك صماء لا تسمع أى صوت عربى . فالرأى العام فى تلك الدول — نتيجة لأوضاعها الطبقية — بعيد تماماً عن التجانس . كما أن مصالح الدول الاستعمارية ذاتها تتناقض فى أمور كثيرة . وعلينا أن ندرس بعناية الأوضاع السياسية العامة والأوضاع الداخلية فى تلك الدول ، وأن نحدد لدعايتنا خطاً أساسياً ، نعبر عنه فى تنويعات مختلفة يؤثر كل منها فى قطاع معين من قطاعات الرأى العام . كذلك يجب أن تكون نقطة البدء فى تحركنا الدعائى فى العالم الغربى أن نعرف بالدقة الصورة التى نجحت الصهيونية فى إثباتها لدى أوسع أقسام الرأى العام هناك ، وأسهمت الدعاية العربية بأخطائها أحياناً وبغيبتها أحياناً أخرى فى تأكيدها . والملامح الأساسية لتلك الصورة تبدو على النحو الآتى . أولا ، إنكار وجود الشعب الفلسطينى كطرف أصيل ومستقل فى نزاع الشرق الأوسط ، فليس هناك إلا مشكلة لاجئين خلقتها الحكومات العربية بدعوتها عرب فلسطين إلى ترك الأراضى التى تخضع لسلطة إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ وأبقت عليها بامتناعها عن توطينهم فى أراضيها الواسعة ذات الموارد الطبيعية الضخمة . وثانياً ، أن مصدر التوتر فى المنطقة هو التهديد المستمر لأمن إسرائيل من جانب الدول العربية التى تجد فى هذه القضية متنفساً لسخط الجماهير على الأوضاع الداخلية . وهذه الدول ، ثالثاً ، متخلفة يحكمها إما ملوك وأمراء إقطاعيون أغناهم البترول ، وإما عسكريون شبان مغامرون . أما حركة القومية العربية فقوامها تعصب عنصرى ودينى متخلف يقدم العداء للغرب بديلا عن النضال من أجل

التقدم وهدفها تكوين إمبراطورية يسيطر عليها هذا أو ذاك من حكام العرب ، وهى بذلك حركة تهدد السلام ولا تخدم التقدم .

ولتبديد هذه الصورة يجب أن تسفر الثورة العربية عن وجهها الحقيقى ، كحركة تحرر وطنى وتقدم اقتصادى واجتماعى . لقد أساء إلى قضيتنا ما توهمه بعضنا فى وقت من الأوقات من أننا فى صراعنا ضد إسرائيل يمكن أن نكسب عطف الأوساط اليمينية فى الغرب المعروفة بعدائها للسامية . وكان هذا خطأ بعيداً ، مبناه عدم تقدير دور الاستعمار فى نشأة إسرائيل ودعمها . وقد تكفلت الأحداث ببيان مدى هذا الخطأ . فعشية حرب يونية وغداتها التفت أقصى قوى اليمين الأوربى تطرفاً حول إسرائيل . وكان ذلك طبيعياً ، فهذه الأوساط الرجعية الاستعمارية تعادى حركة التحرر العربى ، ولا بد أن تناصر كل من يحاربها . كما أن إسرائيل هى الحل الموفق فى نظر العنصريين الأوربيين للتخلص من اليهود . وقد استغلت إسرائيل مع ذلك على أوسع نطاق وجود بعض الخبراء من الألمان الغربيين فى مصر فى فترة معينة لتصرح بأننا نؤوى النازيين ونتعاون معهم ، مع أن حكام بون والنازيين السابقين أصحاب النفوذ فى الجمهورية الاتحادية الألمانية هم الذين ساندوا إسرائيل بالمال والسلاح وأعمال التجسس . ومهما يكن من أمر ، فلابد أن نتخلص نهائياً من أى وهم حول إمكان كسب عطف القوى الرجعية والاستعمارية على الثورة العربية . وعلينا ، على العكس ، أن نكسب كل قوى التقدم التى تضللها الدعاية الصهيونية ، أو تبلبلها بعض أعمالنا وأقوالنا . ولا خطر فى أن يؤدى هذا إلى حصر التأييد لقضيتنا فى نطاق ضيق . فشعب كوبا تمسك بموقفه الثورى الكامل ونجح مع ذلك فى كسب أوسع تأييد متصور ضد تحركات أمريكا . والشعب الفيتنامى يحوز اليوم تأييداً شبه إجماعى من الرأى العام فى أوربا الغربية ، ووجه الثورة الفيتنامية الاشتراكى ليس

سراً بالنسبة لأى إنسان . وسلاحنا الأساسى فى كسب الرأى العام التقدمى هو التركيز على منجزات الثورة العربية فى مجالات التحرر الوطنى والبناء الاقتصادى والتقدم الاجتماعى ، ثم تحقيق المزيد من المنجزات . وبصفة خاصة بناء وحدة القوى الوطنية فى داخل كل دولة عربية مما يسمح بتطوير الديمقراطية ويمحو الآثار التى خلفتها فى الأذهان النتائج السلبية للصراع الحاد بين تلك القوى والتى تمثلت فى اتخاذ بعضها إجراءات إرهابية ضد البعض الآخر . ولا يكفى فى هذا الميدان أن نتحدث مرة ، بل علينا أن نكرر الحديث ولا نمل التكرار . وعلينا أن نؤكد القول بالعمل . فالأعمال حقائق ناصعة يصعب طمسها . وعلى سبيل المثال لعبت المقاومة الفلسطينية دوراً حاسماً فى إعادة طرح قضية الشعب الفلسطينى على الرأى العام يفوق كل جهد دعائى متصور .

واليسار الغربى مكون من قوى متعددة ذات اتجاهات مختلفة . فهناك أولا اليسار الشيوعى . وهو يقف حالياً إلى جانب العرب . وجهد الدعاية بالنسبة إليه يجب أن يتركز فى تأكيد الطابع التقدمى للثورة العربية من ناحية ، وفى الفضح المنتظم لطبيعة العنصرية الصهيونية والأعمال العدوانية التى ترتكبها إسرائيل ، وحقيقة صلتها بالاستعمار ، ودورها فى المنطقة ككلب حراسة للمصالح الإمبريالية وقاعدة للعدوان . فالهدف هنا هو تأصيل موقف الأحزاب الشيوعية الحالى ليتجاوز مستوى التأييد ضد عدوان محدد ويغدو موقف مساندة دائمة فى صراعنا الطويل ضد الصهيونية والاستعمار أما اليسار المسمى « الاشتراكية الديمقراطية » مثل حزب جى موليه فى فرنسا وحزب بيترو نينى فى إيطاليا فإن وضعه أكثر تعقيداً . فالحركة الصهيونية لها ، عن طريق « البوند » ثم الأحزاب العمالية الصهيونية (التى وجدت من قبل أن تقام إسرائيل) ، علاقات وثيقة بتلك الأحزاب التى يجمعها تنظيم دولى هو « الأممية الثانية » ولذلك فهى

بعكس الأحزاب الماركسية اللينينية ، تعتبر الصهيونية حركة قومية ، وتعطف عطفاً أصيلا على فكرة وجود دولة يهودية يضاف إلى ذلك أن عدداً من قادة تلك الأحزاب يتبنى فى الواقع الدفاع عن المصالح الاستعمارية والارتباط بحلف الأطلسى وقبول قيادة الولايات المتحدة . وبالنسبة للحزب الاشتراكى الفرنسى بالذات ، ما زالت ذكرى إخفاق حملة السويس حية تذكى ضراوة العداء للعرب وبصفة خاصة مصر . ومع ذلك فإن قواعد هذه الأحزاب لا يمكن أن تتخذ بانتظام موقف عدم المبالاة بقضية شعب يدافع عن كيانه الوطنى مثل الشعب الفلسطينى. كما أنها لا يمكن أن تتقبل فى سهولة مبدأ التوسع الإقليمى بالقوة . ومن ثم فإن المشقة يجب ألا تثنينا عن محاولة النفاذ إلى صفوف تلك الأحزاب وعرض أكثر جوانب قضيتنا وضوحاً . فعلى الأقل يمكن إلزام قياداتها على التخلى ولو قليلا عن مبدأ التأييد التلقائى والمنتظم لكل ما تصنع إسرائيل . وتلك القواعد تعيش فى نقاش مستمر ، وأحياناً كثيرة فى معارك مشتركة ، مع قواعد الأحزاب الشيوعية . ولذلك فإنه بقدر ما نزود هذه الأخيرة بالحجج والأسانيد ، بقدر ما سيكون فى وسعها التأثير فى أعضاء الأحزاب الاشتراكية . وفى بداية حرب فيتنام كانت قيادات معظم تلك الأحزاب تؤيد التدخل الأمريكى . ولكنها لم تعد اليوم قادرة على التمسك بذلك الموقف . وهناك أخيراً تلك القوى التى يطلق عليها بصفة عامة اسم « اليسار الجديد » ، وبعضها يريد أن يكون أكثر ثورية حتى من الأحزاب الشيوعية . وهى مشكلة أساساً من جماعات من المثقفين متأثرين بدرجات متفاوتة بالثورة فى الصين وكوبا وفى فيتنام . ويمكن لقضية شعب فلسطين أن تكسب بسهولة تأييداً كبيراً فى تلك الأوساط . وعلينا أن ندعم هذا التأييد ونوسعه ، دون أن يعنى ذلك أى إهمال للعمل الدعائى الموجه للأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية .

وثمة أمور يجب أن تراعى كقاعدة عامة فى طرح قضايانا على الرأى العام الغربى . فهذا الرأى العام حساس جداً لفكرة السلام وفض المنازعات بالطرق السلمية . ونحن كثيراً ما نستخدم لغة الحرب فى غير موضعها وبغير مناسبة . وقد كان لموقف الحكومات العربية ، وبصفة خاصة حكومة القاهرة خلال العامين الماضيين من المساعى المبذولة لإيجاد حل سلمى لأزمة الشرق الأوسط أبعد الأثر فى تبديد كثير من الأصداء التى خلقتها الدعاية الصهيونية . ويبدا العرب قوماً يريدون السلام ولا يعشقون الحرب لمجرد الحرب ، فى الوقت الذى ظهر فيه تعنت إسرائيل واتجاهاتها التوسعية . كذلك تركت أحداث الحرب العالمية الثانية فى أوربا عطفاً على اليهود يؤدى إلى تضامن تلقائى فى كل مرة يظن الناس فيها أن ثمة اتجاهاً عنصرياً يحاول تجديد حملات الإبادة والتشريد . وبالتالى فإن وضوح موقفنا المعادى للعنصرية أمر حاسم فى كسب العطف على قضيتنا. والتمييز الواضح بين نضالنا ضد الصهيونية وبين مشاعرنا نحو اليهود ، لا فى القول فقط ، وإنما فى المواقف العملية المحددة كذلك، من شأنه أن يحد من نطاق التأييد التلقائى الذى تتمتع به إسرائيل فى كثير من الدوائر غير الرجعية . كذلك من الأمور البالغة الأهمية أن ننفى الفهم الشائع فى أوربا الغربية والذى يرى فى أزمة الشرق الأوسط صراعاً بين مائة مليون عربى ومليونين من الإسرائيليين ، وأن تبرز مأساة الشعب الفلسطينى ونضاله من أجل وجوده الوطنى المستقل ونوضح أبعاد العدوان الإسرائيلى وتكراره . وأخيراً يجب أن ننفى بكل ما نملك من قوة الفكرة التى تروج لها إسرائيل مؤخراً وهى أن الصراع فى الشرق الأوسط ليس إلا مظهراً محلياً للصراع الكونى بين جبارى العصر : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . فالاتجاه الغالب فى أوربا الغربية هو نفض يد أوربا من هذا الصراع . ونحن نعلم أن حقيقة الأوضاع تخالف ذلك تماماً . فالعرب

هم الطرف الأصيل فى هذا الصراع الضخم من أجل حريتهم وتقدمهم ووحدتهم . وإذا كانت إسرائيل عملياً جزءاً من الاستعمار العالمى تساندها كل قوى الإمبريالية ، بل تشاركها فى العدوان، فإن الاتحاد السوفييتى ينحصر دوره فى تقديم التأييد لشعوب تناضل من أجل حقوقها المشروعة . وإذا كان للاتحاد السوفييتى مصلحة فى أن تستقل البلاد العربية وتتقدم وتتخلص من كل أثر للسيطرة الإمبريالية ، فنحن نسعد بذلك لأنه ضمان لاستمرار التأييد السوفييتى. ولكننا نبقى قبل ذلك التأييد وبعده الطرف الأصيل صاحب المصلحة الحقيقية الذى يتعين عليه تحمل العبء الأساسى فى النضال، الذى لا يحارب بدل أحد ، ولا يطالب أحداً بأن يحارب محله

وفى إطار العمل الدعائى فى الغرب ، يجب أن نفرز مكاناً مختاراً للدعاية بين اليهود . فالصهيونية نجحت إلى حد كبير فى تجنيد غالبية اليهود لخدمة أغراضها العدوانية . ولكن ثمة عدداً لا يستهان به قد تحفظ إزاء الدعوة الصهيونية أو حتى عارضها معارضة كاملة . ويمكن دعم التيار المناهض للصهيونية بين اليهود بأمرين . أولا ، الإلحاح فى توضيح موقفنا غير العنصرى إزاء اليهود ، والتذكير بتقاليدنا الحضارية فى هذا المجال ، ونبذ الكلام غير المسئول الذى يصدر أحياناً عن بعضنا مثل التهجم على اليهود بصفة عامة أو المطالبة بتدمير إسرائيل أو إلقاء الإسرائيليين فى البحر . . . إلخ . والأمر الثانى هو إبراز أثر النشاط الصهيونى فى إحياء نعرة اللاسامية فى أوربا . لقد أثار التضامن الواسع مع إسرائيل، وبغض النظر عن السياسة الرسمية لهذه الدولة أو تلك، التساؤل حول ولاء المواطنين اليهود وهل يذهب أولا إلى إسرائيل أو إلى البلد الذى يحملون جنسيته . وهكذا أصبح مطروحاً الأساس الذى قامت عليه سياسة الاندماج وإلغاء كل تفرقة ضد المواطنين اليهود . ومعنى ذلك أن النشاط الصهيونى بدل أن يحمى اليهود أصبح مصدر خطر على ظروف حياتهم فى أوطانهم الحالية .

فهرس

الصفحة

إلى أين المصير ٧

١ ـ النظرة الجزئية خطأ وخطر

هل اليهود عنصر فاسد ؟ وهل إسرائيل مجرد أداة للاستعمار ؟
فلسطين والجزائر ١١

٢ ـ المخطط الصهيونى : أبعاده ووسائله

الاستعمار الاستيطانى ــ التوسع الإقليمى ــ الموارد
الأجنبية ــ السيطرة الاقتصادية ١٧

٣ ـ الأيديولوجية الصهيونية

العنصرية فى صورة عارية ــ هل هناك قومية يهودية ؟ ــ
والقومية الإسرائيلية ؟ ــ استغلال الدين ــ التفوق
الأوربى ٣٩

٤ ـ دور إسرائيل فى خطط الاستعمار

إسرائيل تجسيد للوجود الاستعمارى ــ الانكشارية
الجديدة ــ الهدف الاستراتيجى للغرب الاستعمارى . ٥٩

٥ ـ استراتيجية النضال العربى

سراب الواقعية ــ تحديد الهدف ــ صراع طويل ومرير ــ
عناصر لاستراتيجية عربية ٧٣

الصفحة

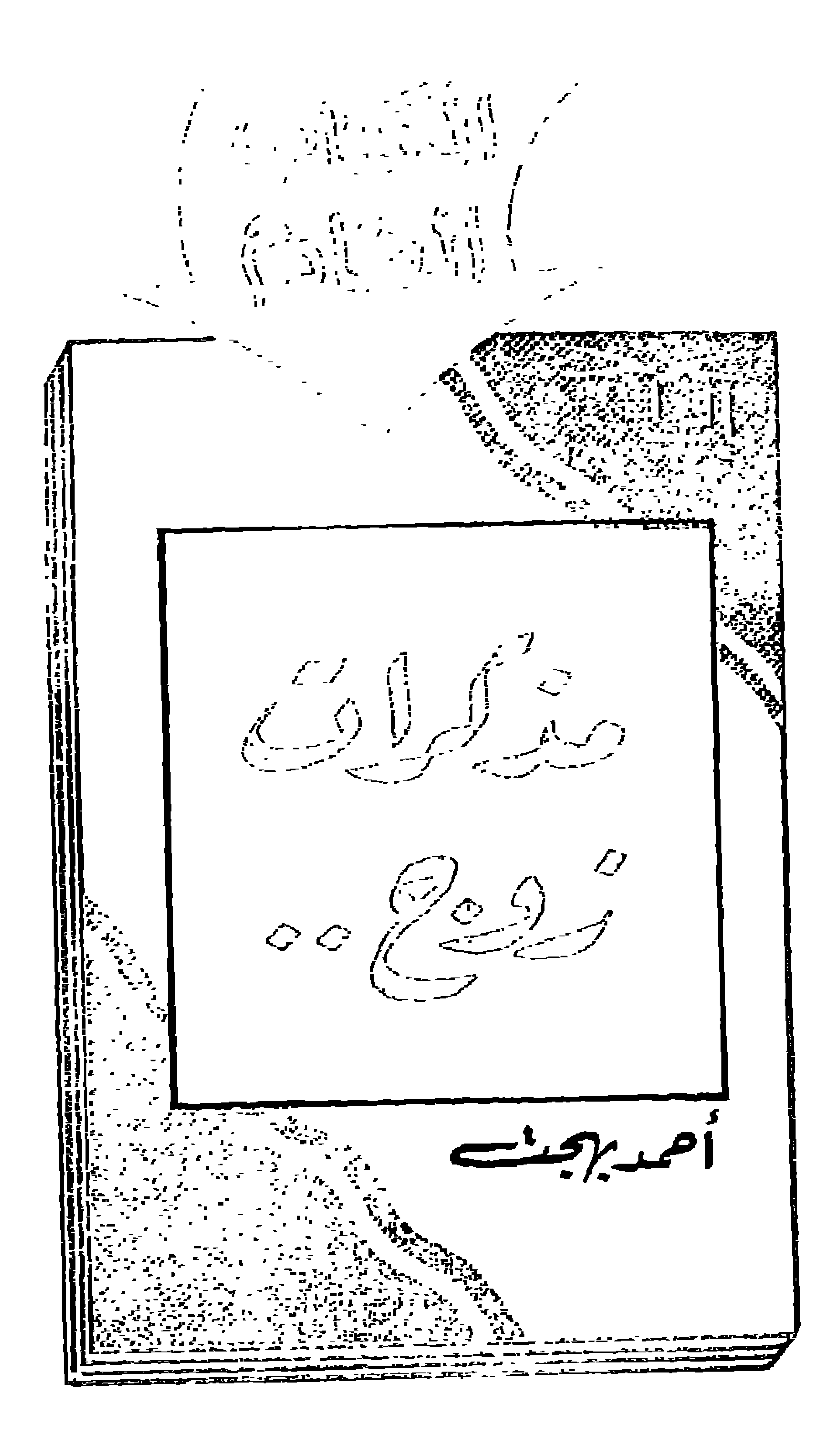
٦ ــ الشعب الفلسطينى : الضحية الأولى وصاحب الحق الأول
مؤامرة الصمت ــ شعب لم يستسلم ــ طريق التحرير
تصفية آثار العدوان وقضية فلسطين . . . ٨٧

٧ ــ الاعتراف والمفاوضة
معنى الصلح ــ الأمن والتوسع ــ الوقاية واليقظة ــ
الرأى العام الإسرائيلى ١١٣

٨ ــ الحرية والاشتراكية والوحدة
تصفية الاستعمار من الوطن العربى ــ التنمية الشاملة ــ
الرأى العام فى الدول الغربية . . . ١٣٣

٩ ــ نحن والعالم
الدول الاشتراكية ــ العالم الثالث ــ الرأى العام
فى الدول الغربية ١٥٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩


الكتاب القادم
مذكرات
نوح ..
أحمد بهجت

دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقــدم هذه المجموعة من الدراسات السياسية والقومية والتاريخية

- نظرة على الخطر — للأستاذ حاتم صادق
- القديس لويس — حياته وحملاته على مصر والشام
  ترجمة الدكتور حسن حبشى
- مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى
  للدكتور عمر كمال توفيق
- لويس التاسع فى الشرق الأوسط — قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية
  للدكتور جوزيف نسيم عبد الملك
- أبحاث مختارة فى القومية العربية — للأستاذ أبو خلدون ساطع الحصرى
- تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية
  للأستاذ محمد رفعت
- التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة — للأستاذ محمد رفعت
- الحكومة الخفية
  تأليف دافيد وايز وتوماس روس ترجمة الأستاذ جورج عزيز
- أزمة القصة السرية لمؤامرة السويس
  تأليف تيرنيس روبرتس — ترجمة الأستاذ خيرى حماد
- فلسطين قلب العروبة — للأستاذ محمد فيصل عبد المنعم
- تاريخ القدس — للأستاذ عارف العارف
- العرب فى صقلية — للدكتور إحسان عباس
- التاريخ الحديث والمعاصر — للأستاذين محمد قاسم وأحمد نجيب هاشم
- مصر والمسألة المصرية — للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

